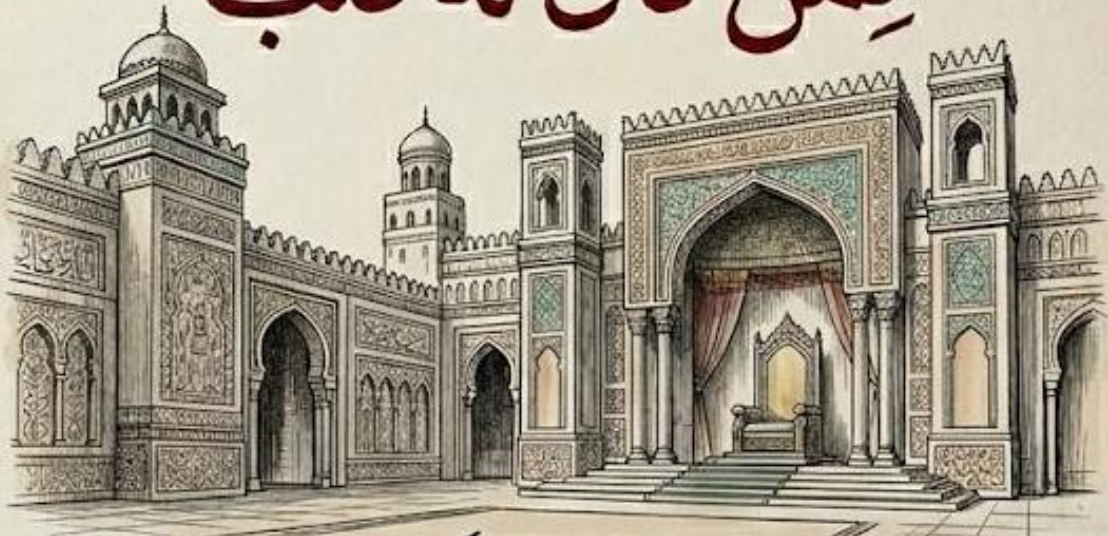




سُورَةُ النَّملِ

كُلُّ شَيْءٍ عِندَآيَةٍ
لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ



رَدَّادُ السَّلَامِ

سورة النمل

كل شيء آية لمن كان له قلب

رداد السلامي



المقدمة

هذه السورة ليست سورة النمل بمعناه الحشري الصغير فحسب، بل هي سورة الوعي المخبأ في الأشياء التي يستخف بها الناس؛ سورة تكشف أن الله قد يجعل في صوت نملة صغيرة ما يوقف جيشاً عظيماً، وقد يجعل في طائر غائب ما يفتح مملكة، وقد يجعل في امرأة ملكة من الحكمة ما لا يملكه رجال كثيرون.

إنها سورة تُعلّمك أن موازين الله لا تشبه موازين البشر؛ فالبشر يفتنون بالكثرة، والملك، والعرش، والهيبة، والجيش، أما الله فيُجري الهداية أحياناً على جناح هدهد، ويوقظ الرحمة في قلب نبيّ بسماع نملة، ويُسقط غرور الممالك أمام كلمة التوحيد.

سورة النمل — في وجه من وجوها — سورة السمع النبوي العالي. سليمان عليه السلام لا يمر على الوجود مرور الغافلين؛ يسمع ما لا يسمعه الناس، ويفهم ما لا يفهمونه، ويرى في الكائنات الصغيرة أمماً لها نظام وخوف ولغة وإدراك. ولذلك لم يكن ملكه مجرد سلطان على الأشياء، بل كان وعياً بها، ورحمةً تجاهها، وشكراً لله عليها.

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

يا لجلال هذا المشهد.

جيشٌ عظيم يمشي، ونملةٌ صغيرة تتكلم، ونبيٌّ ملك يسمع، وقرآنٌ يخلد.

لم يقل القرآن: قالت نملة فهرب النمل وانتهى المشهد.

بل وقف عند صوتها، وسجل خطابها، وخلد خوفها، وأظهر رحمتها بقومها. كأن السورة تقول لك: ليس الصغير صغيراً إذا كان في موضع الوعي، وليس العظيم عظيماً إذا مرّ على الضعفاء بلا شعور.

النملة هنا ليست تفصيلاً عابراً؛ إنها رمزٌ للقيادة اليقظة في أدنى صورها. لم تتجّ وحدها، ولم تكتفِ بسلامتها، بل نادت قومها: **(يَا أَيُّهَا النَّملُ)**. وهذه وحدها تكفي لبناء معنى كامل: أن من رأى الخطر قبل غيره صار مسؤولاً عن الإنذار، وأن الوعي لا يكتمل حتى يتحول إلى رحمة، وأن النجاة الفردية حين تنفصل عن نجاة الجماعة تصبح أنانية لا بصيرة.

ثم تأمل قولها: **(وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)**.

ما أرقّ هذا العدل في الحكم.

النملة لم تتهم سليمان وجنوده بالقسوة، ولم تقل إنهم يريدون تحطيمنا، بل التمست لهم عذر عدم الشعور. وهذا أدب عجيب؛ أن تخاف من الأذى، ومع ذلك لا تظلم نية من قد يؤذيك بغير قصد.

هنا يبتسم سليمان عليه السلام:

(فَتَبَسَّ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا)

ليس ضحك استعلاء، بل ضحك دهشة وشكر.

ضحك نبيٍّ رأى من آيات الله ما يملأ القلب خشوعاً. سمع مخلوقاً صغيراً

يدير أزيمةً بحكمة، فابتسم لأن ملك الله أوسع من عروش الملوك، ولأن الحياة مليئة بأسرار لا يسمعها إلا من رقق قلبه وعلا مقامه.

ثم جاءت الاستجابة العظمى: (رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ)

وهنا تبلغ السورة ذروتها الأولى:

المؤمن إذا رأى آيةً من آيات الله لم يزد غرورًا، بل ازداد شكرًا. سليمان لم يقل: ما أعظم ملكي، ولا ما أوسع قدرتي، ولا ما أدهش ما أوتيت، بل قال: ربّ أوزعني أن أشكر.

كأن السورة تقول:

ليست النعمة أن تملك فقط، بل أن تعرف من أين جاء الملك. وليست الكرامة أن تسمع ما لا يسمع الناس، بل أن يتحول هذا السماع إلى عبودية.

وليست القوة أن تمر الجيوش خلفك، بل أن لا تسحق نملةً وأنت لا تشعر.

ومن هنا يمكن أن نجعل مدخل سورة النمل كله في هذه العبارة:

سورة النمل هي سورة الوعي الذي يسمع الضعيف، والشكر الذي يحرس القوة، والتوحيد الذي يجعل الطير والنمل والملوك والجنود داخل مشهد واحد من تدبير الله.

الفصل الأول

سورة النمل: القرآن حين يفتح عين القلب

قال تعالى: ﴿طس ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ۝ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِسُونَ ۝ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ النمل: ١-٦

تبدأ سورة النمل بالحروف المقطعة: (طس).

وكان السورة منذ أولها تضعك أمام سرٍّ لا تملك اقتحامه بعقلك المجرد، بل تقف أمامه بأدب المتلقي. إن القرآن لا يبدأ دائماً بما يُفسَّر فوراً، بل يبدأ أحياناً بما يربِّي فيك التواضع أمام الغيب، حتى لا تدخل إلى كلام الله دخول المالك للمعنى، بل دخول العبد الذي ينتظر الفتح.

ثم تأتي العبارة الكبرى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾

القرآن هنا ليس كلاماً عابراً، ولا نصّاً ثقافياً، ولا حكاية تاريخية عن نملٍ وهددٍ وملكةٍ ونبيٍّ ملك؛ إنه آيات.

والآية ليست جملةً فقط، بل علامة.

كأن السورة تقول لك: لا تقرأ الأحداث كما يقرأها الغافلون؛ فكل مشهد هنا علامة، وكل حركة تحمل وراءها هداية، وكل كائن صغير قد يكون باباً إلى معنى كبير.

إنها سورة تبدأ بإعلان البيان قبل أن تدخل بك إلى العجائب. ستري نملة تتكلم، وهدهدًا يخبر، وعرشًا ينتقل، وملكة تراجع نفسها، وقومًا يستكبرون، وقرى تهلك، ولكن لا تنس من أول السورة: هذا كله داخل كتاب مبين، أي أن العجيب فيه ليس للفُرجة، بل للهداية.

ثم يقول الله: ﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

وهنا ننتبه إلى معنى لطيف: القرآن لا يعطي أسرارَه لكل قارئ بالدرجة نفسها.

هو كتاب مبين، نعم، لكن الهداية والبشرى لا تنفتحان إلا لقلب مؤمن. قد يقرأ الإنسان الآيات فيرى قصةً ممتعة، وقد يقرأها آخر فيرى طريقًا إلى الله. والفرق ليس في النص، بل في القلب الذي يتلقى النص.

ثم يصف الله هؤلاء المؤمنين: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾

ثلاثة أعمدة: الصلاة، والزكاة، واليقين بالآخرة.

الصلاة تحفظ صلة الإنسان بالسماء.

والزكاة تحفظ طهارة علاقته بالناس والمال.

واليقين بالآخرة يحفظ اتجاهه الأخير، حتى لا يضيع في بهرج الدنيا.

وكان السورة تقول لك قبل أن تعرض عليك مُلك سليمان وعرش بلقيس وقوة الممالك: انتبه، ليست العظمة في الملك، بل في أن يبقى القلب موصولًا بالله، منفقًا في سبيله، مستحضرًا آخرته.

فإن لم يضبط الإنسان علاقته بالله، وبالمال، وبالمصير، فقد يملك عرشاً ثم يضل، وقد يسمع الحق ثم يستكبر، وقد يرى الآية ثم يعرض.

ثم تأتي الجهة المقابلة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾

وهذه آية خطيرة جداً في فهم النفس البشرية.

المشكلة ليست أن الإنسان يخطئ فقط، بل أن يزيّن له خطؤه حتى يراه صواباً.

وليست المصيبة أن يسير في طريق مظلم، بل أن يظن الظلام نوراً.

﴿فَهُمْ يَعمَهُونَ﴾

والعمّه ليس مجرد عمى البصر، بل اضطراب البصيرة. يمشي الإنسان، يتحرك، يخطط، ينجح في ظاهر الدنيا، لكنه من الداخل تائه، لأن بوصلته الكبرى معطلة: بوصلته إلى الآخرة.

وهنا نفهم لماذا بدأت السورة بالآخرة قبل الدخول إلى قصص الملوك والأمم. لأن من لا يؤمن بالآخرة سيفهم الملك فهماً خاطئاً، والقوة فهماً خاطئاً، والنجاح فهماً خاطئاً، والهزيمة فهماً خاطئاً، وحتى الهداية نفسها قد يراها تهديداً لمصالحه.

ثم يقول الله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخَسِرُونَ﴾

ليست الخسارة الكبرى أن يفقد الإنسان ماله، أو سلطانه، أو مكانة في أعين الناس.

الخسارة الكبرى أن يصل إلى الآخرة وقد خسر نفسه.

أن يكتشف متأخرًا أن ما كان يراه مكسبًا كان استدراجًا، وأن ما كان يراه
ذكاءً كان عمهًا، وأن ما كان يراه انتصارًا كان طريقًا إلى سوء العذاب.

ثم تختتم هذه المقدمة بآية جليلة: (وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ)

يا لجلال هذا التعبير: (لَتَلْقَى).

النبي ﷺ لا يؤلف القرآن، ولا يستخرجه من ثقافته، ولا يصنعه من
عبقريته، بل يتلقاه.

والتلقي هنا مقام شرف وعبودية معًا؛ شرف لأن مصدره من عند الله،
وعبودية لأن الرسول مبلغ عن ربه.

ثم يأتي الاسمان العظيمان: (حَكِيمٍ عَلِيمٍ)

عليم لا تخفى عليه خافية.

وحكيم لا يضع شيئًا إلا في موضعه.

وهذان الاسمان سيكونان مفتاحًا لكل السورة.

فحين ترى سليمان يفهم منطق الطير، فتذكر أن الله عليم.

وحين ترى النملة تُسمع في موضع قد لا يلتفت إليه البشر، فتذكر أن الله
عليم.

وحين ترى الهدد يغيب ثم يعود بخبر مملكة، فتذكر أن الله حكيم.

وحين ترى بلقيس تنتقل من عرش الملك إلى نور الإسلام، فتذكر أن الله
حكيم عليم.

خلاصة المدخل

سورة النمل تبدأ قبل العجائب بتربية القلب الذي سيتلقى العجائب.
تقول له: هذا قرآن مبين، لكنه لا يكون هدى وبشرى إلا للمؤمنين.
وتقول له: أصل البصيرة في الإيمان بالآخرة، فمن ضاعت آخرته تزينت له أعماله وهو يعمه.

وتقول له: أنت مقبل على سورة مليئة بالممالك والكائنات والآيات، فلا تنس أن مصدر هذا كله من لدن حكيم عليم.

ومفتاح هذا الفصل:

من لم يدخل سورة النمل بقلب مؤمن بالآخرة، رأى فيها غرائب الأحداث،
ومن دخلها بقلب موصول بالله، رأى فيها هندسة الحكمة الإلهية في الخلق
والملك والهداية.

الفصل الثاني

موسى عند النار: حين يبدأ الاصطفاء من لحظة حاجة

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيَكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَشِيرٍ أَوْ نَذِيرٍ أَوْ تَنْصِيلٍ ۚ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۚ يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۚ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ۚ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۚ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِّنْ غَيْرِ سُوءٍ ۚ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فَاسِقِينَ ۚ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۚ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلوًّا ۚ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ النمل: ٧-١٤

يبدأ المشهد بعبارة شديدة الإنسانية: ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾

موسى عليه السلام لم يخرج في تلك اللحظة يبحث عن رسالة، ولا عن مواجهة فرعون، ولا عن مقام عظيم في تاريخ النبوة؛ كان يبحث عن نار، عن دفء، عن خبر، عن شيء يعين أهله في وحشة الطريق.

وهنا يشرق معنى من ألطف معاني الاصطفاء:

قد تبدأ أعظم التحولات في حياتك من حاجة بسيطة.

قد تخرج تبحث عن قبس، فيفتح الله لك باب الوحي.

قد تمشي إلى نار تراها بعين الحاجة، فإذا بها موعدٌ ربّبه الله بعين الحكمة.

إِن مُوسَى قَالَ لِأَهْلِهِ: ﴿سَاتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾

كان يريد خبرًا للطريق أو قبسًا للبرد، فجاءه ما هو أعظم من الخبر والقبس: جاءه النداء.

وهكذا يفعل الله بعباده المختارين؛ يدخلون إلى الموعد من باب الحاجة، فيخرجون منه بحمل الرسالة.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

هنا تتحول النار من مصدر دفع إلى موضع بركة. والإنسان في الغالب يخاف النار، لكن هذه النار لم تكن نار إحراق، بل نار إيقاظ، نار جذب، نار موعد.

كأن الله يعلم موسى منذ اللحظة الأولى أن الأشياء ليست بما تبدو عليه دائمًا؛ فما تراه نارًا قد يكون باب نور، وما تراه وحشة قد يكون حضرة، وما تراه اضطرابًا قد يكون اصطفاءً.

ثم يأتي التعريف الإلهي الجليل: ﴿يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ العزيز الذي لا يُغالب. الحكيم الذي لا يضع شيئًا عبثًا.

وهذان الاسمان في هذا الموضع لهما وقع خاص؛ لأن موسى سيُرسل إلى فرعون، إلى طاغية يظن أنه عزيز، وإلى نظام يظن أن سلطانه محكم. فجاءه

التعريف من أول الطريق: لا تنتظر إلى عزة فرعون، فأنا العزيز. ولا تضطرب أمام تعقيد المواجهة، فأنا الحكيم.

ثم تبدأ التربية العملية: (وَأَلْقِ عَصَاكَ)

العصا التي كانت مألوفة في يد موسى، أداة رعي وسندٍ وسفر، تتحول بأمر الله إلى آية.

وهنا معنى عظيم: الله قد يجعل الآية من الشيء الذي في يدك، لا من شيء بعيد عنك.

قد تكون عصاك، موهبتك، تجربتك، قلمك، صوتك، جرحك، غربتك، شيئاً عادياً في نظرك، فإذا دخل عليه أمر الله صار آية.

لكن موسى حين رآها تهتز: (كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ)

وهذا من جمال القرآن وصدقه في تصوير بشرية الأنبياء. موسى نبي، لكنه بشر.

يرى العصا تهتز فيخاف. لا يصنع القرآن من الرسول صورة جامدة لا ترتجف، بل يريك أن الاصطفاء لا يلغي الطبيعة البشرية، وإنما يربّيها، ويهذبها، ويثبتها بالوحي.

ثم يأتي الأمان: (يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ)

يا لجلال هذه الكلمة: (لَدَيَّ).

لا يخافون لأنهم ليسوا وحدهم.

لا يخافون لأنهم في حضرة التكليف والحفظ.

قد يخافون بطبعهم البشري أول الأمر، لكنهم لا يستقرون في الخوف؛ لأن مقام الرسالة مقام معية.

ثم تأتي آية الرحمة المفتوحة: **(إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ)**

كأن الرحمة لا تغيب حتى في مقام الهيبة.

الله يفتح باب التبديل: من بدل حسناً بعد سوء، وجد الله غفوراً رحيمًا. وهذا من أعظم ما يربّي القرآن في القلب: أن الماضي لا يكون قبراً للإنسان إذا صدق في التحول، وأن السوء لا يملك الكلمة الأخيرة إذا جاء بعده حسن صادق.

ثم تأتي الآية الثانية: **(وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ)**

يدخل موسى يده في جيبه، فتخرج بيضاء من غير مرض. وهنا تتكرر الفكرة نفسها: الآية قريبة جداً، في العصا التي يحملها، وفي اليد التي هي جزء منه. كأن الله يقول له: لا تحتاج أن تكون أدواتك عظيمة في نظر الناس، يكفي أن يلمسها أمر الله.

ثم يحدّد الطريق: **(فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ)**

الرسالة ليست تجربة روحية منعزلة، بل مواجهة للفساد. الوحي لا يبقى عند الجبل، بل ينزل إلى الواقع.

والآية لا تُعطى للدهشة فقط، بل لإقامة الحجة، ومواجهة الطغيان، وإنقاذ الناس من عبودية البشر.

ثم يجيء الموقف المأساوي: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾

تأمل: الآيات نفسها مبصرة، أي واضحة مضيئة كاشفة، لكن القلوب التي استقبلتها كانت مظلمة.

فليست المشكلة دائماً في خفاء الحق، بل في فساد المتلقي.

قد تكون الآية مبصرة، لكن العين الداخلية مطموسة بالكبر والمصلحة والفسق.

ثم تأتي الآية التي تكشف عمق الجريمة: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾

هذه من أخطر الآيات في القرآن في تفسير الكفر المتكبر.

ليس كل رفض للحق سببه الجهل.

أحياناً يعرف الإنسان الحق، ويستيقنه من داخله، ثم يجحده؛ لا لأنه لم يفهم، بل لأنه لا يريد أن يخضع.

﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾

الظلم يفسد عدله.

والعلو يفسد تواضعه.

فإذا اجتمع الظلم والعلو، صار الإنسان قادراً على أن يرى الشمس ثم

يسميتها ظلامًا، وأن يسمع الحق ثم يسميه سحرًا، وأن يعرف الآية ثم يعاديتها لأنها تهدد كبريائه.

ثم يختم المشهد: **(فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ)**

السورة لا تريد منك أن تنتظر إلى بداية الطغيان فقط، بل إلى نهايته. فالطغاة يملكون في البدايات ضجيج القوة، لكن القرآن يعلمك أن تقرأ العواقب.

لا تتخضع بفرعون وهو على عرشه، بل انظر إليه وهو يغرق. لا تتخضع بالمفسدين حين يملكون أدوات الأرض، بل انظر كيف يختم الله قصتهم.

خلاصة الفصل

مشهد موسى في سورة النمل يعلمنا أن الله قد يفتح باب الرسالة من حاجة عابرة، وأن الأشياء البسيطة إذا دخلها أمر الله صارت آيات، وأن الخوف البشري لا يناقض الاصطفاء إذا تولاه الوحي بالثبوت.

ويعلمنا كذلك أن أخطر الكفر ليس كفر الجاهل الذي لم ير، بل كفر المتكبر الذي رأى واستيقن ثم جحد ظلمًا وعلوًا.

ومفتاح هذا الفصل:

قد تخرج تطلب قبسًا لطريقك، فيناديك الله إلى قدرك؛ وقد ترى النار من بعيد فتظنها حاجة، فإذا بها بداية الرسالة.

الفصل الثالث

داود وسليمان: حين يكون العلم باباً للشكر لا باباً للغرور

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ۝ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ۖ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عِلْمُنَا مِنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ۚ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ۝ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ النمل: ١٥-١٩

تبدأ الآيات بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾

ولم يقل: آتيناهما ملكًا، مع أن الملك حاضر في قصتهما حضورًا عظيمًا. لكن القرآن يقدم العلم على الملك؛ لأن الملك بلا علم يتحول إلى بطش، والقوة بلا بصيرة تصبح عبثًا على صاحبها وعلى الناس.

إن أول هبة تُذكر هنا ليست الجيوش، ولا العرش، ولا القدرة على تسخير الكائنات، بل العلم.

وكأن السورة تقول: إن السلطان الذي لا يؤسسه العلم سلطانٌ أعمى، وإن الملك الذي لا تهذبه المعرفة قد يغدو فتنة لا نعمة.

ثم جاءت الاستجابة: ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾

ما أعظم أن تكون أول ثمرة العلم: الحمد.
فالعلم إذا صحّ لم يصنع الكبر، بل يصنع الانكسار.
العالم الحقيقي لا يرى علمه ملكيةً ذاتية، بل عطيةً ربانية؛ لا يقول: أنا
بلغت، بل يقول: الحمد لله الذي آتاني.
وهنا الفرق بين علمٍ يقود إلى الله، وعلمٍ يقود إلى النفس.

ثم قالوا: ﴿الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

هذا اعتراف بالفضل، لا تفاخر على الخلق.
فالفضل إذا نُسب إلى الله صار شكرًا، وإذا نُسب إلى النفس صار غرورًا.
وداود وسليمان عليهما السلام لا يقولان: نحن أفضل لأننا نحن، بل يقولان:
الله فضّلنا.

وهذا أدب عظيم في حمل النعمة:
أن تعرف أنك مفضلٌ في شيء، دون أن تتحول إلى مستعلٍ به.
أن ترى الخصوصية، ولا تفقد العبودية.
أن تعلم أن الله أعطاك، فلا تحتقر من لم يُعطَ مثل عطائك؛ لأن الذي أعطاك
قادر أن يسلبك، وقادر أن يفتح لغيرك بابًا لم يفتحه لك.

ثم قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾

ليست الوراثة هنا مجرد انتقال نسب أو ملك، بل انتقال أمانة.
فبعض الموارد أثقال لا أموال، ومسؤوليات لا امتيازات.

لقد ورث سليمان مقامًا عظيمًا، لكن المقام العظيم لا يُحمل بالانتساب وحده، بل بالأهلية.

ثم قال سليمان: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِّمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾

تأمل قوله: ﴿عَلِّمْنَا﴾.

لم يقل: علمنا، ولا اكتشفنا، ولا بلغنا بقوتنا، بل قال: عَلِّمْنَا. صيغةٌ كلها أدب مع الله.

كأن سليمان يخلع عن نفسه دعوى الاستقلال من أول العبارة.

ثم يذكر نعمةً مدهشة: **منطق الطير**.

وهنا تدخل السورة إلى عالمٍ أرحب من العالم الذي اعتادته العين البشرية. الطير ليس زينةً في السماء فقط، ولا أصواتًا عابرةً فوق الرؤوس، بل أمٌّ لها منطق، وحركة، وإدراك، ووظائف في ملك الله.

وسليمان لا يملكها بمعنى التسلط الوحشي عليها، بل يفهم خطابها ضمن نظامٍ رباني واسع.

فالملك النبوي ليس قهراً للوجود، بل فهمٌ له، ورحمةٌ به، وتسخيرٌ منضبط بالشكر.

ثم قال: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾

هنا تبلغ الآية جمالها.

كلما اتسعت النعمة في يد سليمان، ازداد وضوح الفضل في قلبه.

لم يقل: هذا هو المجد المبين.

لم يقل: هذا هو السلطان المبين.

لم يقل: هذا هو التفوق المبين.

بل قال: ﴿الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾.

والفضل معناه أن الأصل ليس استحقاقك، بل عطاء الله.

فإذا فهمت النعمة على أنها فضل، بقيت عبداً.

وإذا فهمتها على أنها استحقاق محض، بدأت عبوديتك تتصدع.

ثم قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾

يا له من مشهد مهيب.

جنّ، وإنس، وطير؛ عوالم متعددة تتحرك في موكب واحد.

هذا ليس ملكاً عادياً، بل نظام كوني مصغر، تجتمع فيه قوى خفية وظاهرة، أرضية وسماوية، عاقلة وطائرة، كلها داخلة في طاعة نبيّ ملك.

لكن القرآن لا يتركك مأخوذاً بضخامة الجيش طويلاً، بل ينقلك مباشرة إلى نملة.

وهنا عبقرية السورة.

بعد أن ترى الجن والإنس والطير، يقول تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ﴾

من الجيوش العظيمة إلى وادي النمل.

من هيبة الموكب إلى هشاشة الكائن الصغير.

من صخب القوة إلى صوتٍ دقيق يكاد لا يسمعه أحد.

كأن السورة تقول: امتحان القوة ليس في قدرتها على سحق الكبار، بل في وعيها بالصغار.

ثم قالت النملة: **(يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ)**

هذه نملة، لكنها ليست غافلة عن قومها.

رأت الخطر، فلم تنج وحدها.

وهذه قيادة في أدنى الكائنات حجمًا، لكنها عالية في المعنى: أن من رأى الخطر صار مسؤولًا عن البيان.

ثم قالت: **(لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ)**

اختارت لفظًا بديعًا: **يحطمنكم**.

لأن أجساد النمل هشة أمام الأقدام، سهولة الكسر، ضعيفة أمام وطأة الجيوش.

وهنا يظهر الفرق الهائل بين حجم القوة وحجم الضعف.

ومع ذلك لم يضيع صوت الضعيف في القرآن.

ثم قالت: **(وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)**

هذه من أرقّ الجمل في السورة.

النملة خافت، لكنها لم تنتهم.

حذرت، لكنها عدلت.

أدركت احتمال الأذى، لكنها لم تفتر على النية.

وهذا أدب مدهش:

أن تحمي نفسك من ضرر غيرك، دون أن تظلمه في باطنه.

أن تقول: قد يؤذيني، ولكن ربما بغير قصد.

أن تفرّ من الخطر، دون أن تصنع في قلبك كراهية لا دليل عليها.

ثم جاء أثر هذا القول في قلب سليمان: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾

لم يغضب أن نملة حذّرت منه.

ولم يقل: كيف تذكر اسمي في موضع التحطيم؟

ولم يتكبر على صوتها.

بل تبسم.

وهنا يظهر معدن الملك النبوي:

القوي العظيم الذي يستطيع أن يسمع الصغير دون أن يضيق.

بل يبتسم؛ لأنه أدرك آيةً من آيات الله في هذا الصوت الصغير.

ثم لم يقف عند الابتسامة، بل صعد بها إلى الشكر: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾

ما أجمل هذا التحول.

نملة تتكلم، وسليمان يشكر.

كائن صغير يوقظ في قلب ملكٍ نبيٍّ دعاءً عظيمًا.

وهذا معنى رفيع جدًا:

القلوب الحية لا تحتاج إلى صواعق كبرى كي تتذكر الله؛ قد توقظها نملة،

وقد يردّها إلى الشكر صوتٌ صغير، وقد ترى في مشهدٍ عابر بابًا إلى عبودية عميقة.

ثم قال: **(الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ)**

لم يرَ النعمة مبتورةً عن تاريخها.
تذكر والديه.

وهذا من كمال الوفاء؛ أن يعرف الإنسان أن ما هو فيه ليس نتيجة نفسه وحدها، بل وراءه نعمٌ ممتدة، ودعوات، وتربية، وميراث صلاح، وأبواب فتحتها الله قبله.

ثم قال: **(وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ)**

لم يطلب مجرد العمل الصالح، بل العمل الذي يرضاه الله.
فليس كل ما يراه الناس صالحًا يكون عند الله كذلك، حتى تصح النية، ويستقيم الاتباع، ويخلص القلب.

كأن سليمان يقول: يا رب، لا تجعل نعمتي تنتهي عند الانفعال بالشكر، بل اجعلها تتحول إلى عمل.

فالنعمة إذا لم تثمر عملاً صالحاً، بقي الشكر ناقصاً.

ثم ختم دعاءه: **(وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ)**

يا للدهشة.

سليمان، النبي الملك، صاحب الجنود من الجن والإنس والطير، الذي علّم منطق الطير، لا يتكئ على عمله ولا مقامه، بل يقول: **برحمتك**.

وهنا قمة التوحيد.

أعظم الناس مقامًا أعظمهم افتقارًا إلى رحمة الله.
وكلما عرف العبد ربه حقًا، علم أن العمل مهما عظم لا يُدخله في الصالحين
إلا برحمة الله.

خلاصة الفصل

هذا المشهد من سورة النمل لا يعرض لنا ملك سليمان ليستثير الإعجاب
بالقوة، بل ليعلمنا كيف تُحمَل القوة حين تكون في يد عبدٍ شاكر.

العلم يبدأ بالحمد.

والملك يُصان بالاعتراف بالفضل.

والجيوش العظيمة تختبرها نملة صغيرة.

والقلب النبوي يحوّل صوت الضعيف إلى دعاء.

ومفتاح هذا الفصل:

ليست عظمة سليمان أنه سمع النملة فقط، بل أنه حين سمعها لم يزد
شعورًا بالسلطان، بل ازداد طلبًا للشكر والرحمة والصلاح.

هنا تنتقل السورة من وادي النمل إلى مملكة سبأ؛ من صوت نملة خافتة إلى
عرش امرأة عظيمة، ومن مخلوقٍ صغير أنقذ قومه بالإنذار، إلى طائرٍ
صغير فتح باب الهداية لأمة كاملة.

الفصل الرابع

الهدد وبلقيس: حين يحمل الطائر خبر التوحيد إلى عرش الملك

قال تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاءَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ النمل: ٢٠-٢٦

يبدأ المشهد بقوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾

وهنا أول جمال إداري ونبوي في شخصية سليمان عليه السلام. إنه لا يملك الجيوش ثم يغفل عن أفرادها. لا تُنسيه ضخامة الملك دقة المتابعة. يتفقد الطير، ويلاحظ غياب الهدد.

وهذه آية في معنى القيادة:

القائد العظيم ليس من يملك الجموع فقط، بل من يعرف موضع الغائب من أصغر جنده.

فالملك عند سليمان ليس فوضى قوة، بل نظام ومسؤولية ومحاسبة.

ثم قال: ﴿مَا لِي لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾

في العبارة دقة عجيبة.

لم يجزم مباشرة بغيابه، بل قال: ما لي لا أرى الهدهد.
كأنه يبدأ بالسؤال عن احتمال أن يكون الخلل في الرؤية قبل أن يحكم على الغائب.

وهذا من عدل الأنبياء:

لا تُبنى الأحكام الكبرى على الانفعال الأول.

لا تقل: غاب، قبل أن تسأل: هل لم أراه؟

لا تتهم حتى تستوثق.

فالعَدل يبدأ أحياناً من التردد النبيل قبل إصدار الحكم.

ثم قال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾

وهنا يظهر أن مملكة سليمان ليست مملكة رخاوة، بل مملكة نظام.

الغياب عن موقع التكليف ليس أمراً عابراً.

لكن حتى مع شدة الوعيد، أبقى الباب مفتوحاً للبرهان: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾.

وهذا ميزان بالغ:

حزم بلا ظلم، ومحاسبة بلا إغلاق باب العذر.

القائد الذي لا يحاسب تُفسده الفوضى، والقائد الذي لا يقبل البرهان يفسده الاستبداد.

ثم جاء الهدهد: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾

لم يطل الغياب.

وكان السورة تجعل التوتر قصيرًا لتدخلنا سريعًا في المفاجأة الكبرى.

قال الهدهد: (أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ)

يا لجرأة هذه الجملة، ويا لعظمتها في موضعها.

هدهد صغير يقول لنبيّ ملك: عندي من الخبر ما ليس عندك.

وهنا تهدم السورة غرور المعرفة من جذوره.

مهما اتسع علمك، فقد يحمل إليك الأصغر منك ما لم تحط به.

ومهما بلغت منزلتك، فليس كل غائب عنك تافهًا، وليس كل صغير في

مقامه صغيرًا في خبره.

هذه الآية وحدها تربي العلماء والقادة والمفكرين:

لا تحتقر حامل المعلومة لصغر رتبته.

فالخبر لا يقاس دائمًا بحجم حامله، بل بصدقه وأثره.

ثم قال: (وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ)

لم يقل: سمعت، أو بلغني، أو أظن.

بل قال: (بِنَبَأٍ يَقِينٍ).

وهذا أدب في نقل الأخبار.

ليس كل ما تراه تقوله حتى يتحول إلى يقين، وليس كل خبر يصلح أن يُرفع

إلى مقام القرار حتى يكون ثابتًا.

الهدهد لم يكن مجرد طائر فضولي، بل كان صاحب نبأ، وصاحب تحقق،
وصاحب وعي بعظمة ما يحمل.

ثم بدأ تقريره: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾

لم يقل أولاً: وجدت قومًا يعبدون الشمس.

بدأ بالبنية السياسية: امرأة تملكهم.

كانه يصف الواقع كما هو: هناك مملكة، وهناك قيادة، وهناك نظام، وهناك
مركز قرار.

وهذا يعلمك أن الدعوة الواعية لا تدخل المجتمعات من غير فهم لتركيبها.
الهدهد رأى الدين والسياسة والسلطة والعرش والقوم، وربط بينها في تقرير
واحد.

ثم قال: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾

إنها ليست امرأة عادية، ولا مملكة هامشية.

بلقيس ملكة ذات سلطان، وأدوات، ونظام، وعرش عظيم.

لكن لاحظ جمال القرآن: يعترف بعظمة ما عندها، ثم يكشف نقصه الأكبر.
فالقرآن لا يبخس الناس أشياءهم؛ يذكر الملك والعرش والعظمة، لكنه لا
يجعلها كافية إذا غاب التوحيد.

ثم قال: ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾

هنا جوهر القضية.

المشكلة ليست أنها ملكة.

وليست أن لها عرشاً عظيماً.
وليست أنها أوتيت من كل شيء.
المشكلة أن اتجاه السجود منحرف.

فالإنسان قد يملك نظاماً عظيماً، وثروة، وحضارة، وهيبة، لكنه إذا سجد
لغير الله فقد ضلّ موضع الرأس.

إن أعظم ما في الإنسان ليس ما يملكه بيده، بل لمن يضع جبهته.

ثم قال: **(وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ)**

وهذا يردنا إلى مطلع السورة: **(زَيْنًا لَهُمُ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ)**.

التزيين هو الكارثة الخفية.

أن لا يرى الإنسان باطله قبيحاً.

أن تتحول العبادة المنحرفة إلى تراث، والضلال إلى هوية، والسجود
للشمس إلى نظام ثقافي معتاد.

كم من باطلٍ عاش طويلاً لا لأنه حق، بل لأن الشيطان ألبسه ثوب العادة
والجمال والمهابة.

ثم قال الهدهد: **(أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ)**

كأن قلب الهدهد لم يحتمل هذا الانحراف.

رأى عرشاً عظيماً، لكنه لم يُفتن بالعرش.

رأى ملكةً عظيمة، لكنه لم ينسَ الملك الأعظم.

رأى قومًا منظمين، لكنه لم يخضع لبريق الحضارة حين رآها ساجدةً لغير الله.

وهنا عظمة الهدهد:

لم يكن مذهولًا بالقوة حتى يفقد معيار التوحيد.
كان يعرف أن السجود هو مركز الحقيقة.

ثم وصف الله بقوله: **(الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)**

يا لجمال هذا الوصف في فم الهدهد.

الهدهد كائنٌ يبحث بطبيعته عن المخبوء، ثم يشهد لله بأنه هو الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض.

كأن الطائر فهم من وظيفته الصغيرة معنى كونياً كبيراً:

أنا قد أرى بعض المخبوء في الأرض، أما الله فيخرج كل خبيء في السماوات والأرض.

لا يخفى عليه دفين، ولا سر، ولا نية، ولا مملكة بعيدة، ولا قوم يعبدون الشمس خلف الجبال.

ثم قال: **(وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ)**

وهنا ينتقل من الخبء الكوني إلى الخبء النفسي.

الله لا يخرج المخبوء في الأرض فقط، بل يعلم المخبوء في الصدور.
يعلم ما تخفيه الممالك خلف هيبتها، وما تخفيه القلوب خلف ألفاظها، وما تخفيه السياسات خلف رسائلها.

ثم يختم الهدهد توحيده بقوله: (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)

وهذه الخاتمة مدهشة؛ لأنه ذكر قبل قليل عرش بلقيس العظيم، ثم ختم برب العرش العظيم.

كأن السورة تضع عرشاً أمام عرش:

عرش بلقيس عظيم في الأرض،

لكن الله هو رب العرش العظيم.

فلا عرش يستحق أن يُفتن به القلب إذا تذكر عرش الله.

ولا ملك يبقى مهيباً في النفس إذا حضر ملك الله.

ولا سلطان يصير مطلقاً إذا عرف الإنسان أن فوق كل عرش رباً قاهراً عظيماً.

خلاصة الفصل

في هذا المشهد، لا يكون الهدهد مجرد طائرٍ غاب فعاد، بل شاهداً من شهود التوحيد.

يعلّمنا أن الصغير قد يحمل خبراً كبيراً، وأن القيادة العادلة تتفقد وتحاسب وتقبل البرهان، وأن الحضارات مهما عظمت لا تُقاس بعروشها فقط، بل باتجاه سجودها.

ومفتاح هذا الفصل:

حين رأى الهدهد عرش بلقيس العظيم، لم تسقط من قلبه عظمة التوحيد؛ لأن من عرف رب العرش العظيم لم تفتنه عروش الأرض.

ننتقل إلى المرحلة التالية من المشهد نفسه:

بعد أن جاء الهدد بالنبأ اليقين، لم يتعامل سليمان عليه السلام مع الخبر بانفعالٍ سريع، بل اختبره بالرسالة. وهنا تبدأ سورة النمل في عرض واحدة من أرقى صور القيادة النبوية: **التثبت، ثم الخطاب، ثم مراقبة الأثر.**

الفصل الخامس

من الكتاب إلى العرش: حين تتحرك الهداية بسلطان الكلمة

قال تعالى: ﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ٢٧ ﴿أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ ٢٨ ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ ٢٩ ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ٣٠ ﴿أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ ٣١ ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ ٣٢ ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ ٣٣ ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ۚ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ ٣٤ ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ النمل: ٢٧-٣٥

قال سليمان: ﴿سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾

يا لجمال هذا الميزان.

لم يكذب الهدهد لأن الخبر عجيب، ولم يصدقه لأن كلامه مؤثر.

قال: سننظر.

وهذه كلمة عاقلة عظيمة.

فالأخبار، خاصة حين تتعلق بمصائر الأمم، لا تُبنى على الاندهاش ولا

على حسن الظن وحده، بل على التثبت.

الهدهد جاء بنبا يقين من جهته، لكن سليمان قائد نبي، يعلم أن صدق الناقل

لا يكتمل في مقام القرار حتى يُختبر الخبر في الواقع.

ثم قال: ﴿اذهب بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾

هنا تتحول المعلومة إلى رسالة.
والرسالة في يد الهدهد تصبح بداية فتح جديد.
هذا الطائر الذي كان مهددًا بالعذاب أو الذبح صار حامل كتاب نبيٍّ إلى
ملكة عظيمة.

وهذا من أعجب تحولات السورة:
الغائب إذا عاد بصدق قد يصير رسولاً.
ومن كان موضع مساءلة قد يغدو موضع تكليف.
ليست العبرة بأنك غبت، بل بماذا عدت.
وليست العبرة بأنك أخطأت في الظاهر، بل هل تحمل سلطاناً مبيناً يضعك
من جديد في موضع الثقة؟

ثم قال: ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَأَنْظَرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾

إنها قيادة واعية لا تكتفي بإرسال الخطاب، بل تراقب أثره.
الكلمة ليست مجرد إلقاء، بل اختبار للضمائر.
والدعوة ليست صراخاً، بل إرسال دقيق، ثم انتظار حكيم لما سترجعه
النفوس.

ثم ينتقل القرآن إلى قصر بلقيس: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ
كَرِيمٌ﴾

ما أعظم هذه المرأة في أول ظهورها.
لم تصرخ، ولم تضطرب، ولم تُخفِ الأمر عن أهل الرأي.
جمعت الملاء، ووصفت الكتاب بأنه كريم.

وهذا الوصف وحده يكشف شيئاً من عقلها؛ فقد عرفت من هيئة الكتاب
وأسلوبه ومصدره أنه ليس رسالة سوقية، ولا تهديداً رعوياً، ولا خطاباً
مبتذلاً.

القلوب الكبيرة تعرف كرامة الخطاب من أول ملامسته لها.

ثم قرأت: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

هنا تبدأ الرسالة باسم الله، لا باسم الملك.
مع أن المرسل سليمان، النبي الملك العظيم، لكنه لا يجعل اسمه أول
الحقيقة، بل يجعل اسم الله هو الباب.

وهذا أدب القوة المؤمنة:

أن لا تبدأ بذاتك، ولو كنت تملك الجن والإنس والطير.
أن لا تجعل سلطانك هو المقدمة، بل تجعل الله هو المقدمة.
فكل خطاب لا يبدأ بمعنى العبودية يخشى عليه أن ينتهي إلى الاستعلاء.

ثم جاء مضمون الكتاب: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ﴾

إنها كلمات قليلة، لكنها حاسمة.
ليس فيها زخرف دبلوماسي طويل، ولا مراوغة سياسية، ولا إغراءات
مادية.

القضية واضحة: لا تعلوا، وأتوني مسلمين.

والعلو هنا هو جذر الانحراف.

فالإنسان قد لا يرفض الحق لأنه لم يسمعه، بل لأنه لا يريد أن ينزل عن علوه.

ولهذا خاطب سليمان أصل الداء: لا تعلوا.

فما دام العلو في القلب، فلن ينزل الجسد إلى السجود، ولن تنفتح النفس للحق.

ثم قالت بلقيس: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾

هنا يظهر عقلها السياسي الراشد.

هي ملكة، ومع ذلك لا تستبد بالرأي.

تملك القرار، لكنها لا تحتقر المشورة.

وهذه منزلة عالية في الحكم: أن تجمع بين قوة الموقع وتواضع الاستماع.

ثم أجابها الملأ: ﴿نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾

جوابهم يكشف طبيعة الطبقة العسكرية والسياسية حولها.

أول ما قدّموه: القوة والبأس.

وهكذا تفكر الدول غالبًا حين يطرقها خطاب جديد: كم نملك من القوة؟ كم

عندنا من بأس؟ هل نستطيع المواجهة؟

لكنهم في الوقت نفسه فوّضوا القرار إليها: ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾.

وهنا تظهر بلقيس أكثر حكمة منهم.

لم تُسكرها عبارة القوة، ولم يدفعها حماس الرجال إلى حربٍ غير محسوبة، بل قالت: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾

هذه ليست عبارة خوف، بل قراءة عميقة للتاريخ.

بلقيس تعرف معنى الحرب.

تعرف أن دخول الملوك ليس نزهة، وأن القرى لا تبقى كما كانت إذا داستها أقدام الجيوش، وأن أعزة الناس يدفعون ثمن الصراع قبل غيرهم.

والقرآن يعقّب: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾

كأنها حكمة شهد لها النص.

الحرب حين تدخل المدن لا تكتفي بإسقاط الجدران، بل تكسر النفوس، وتبدل مواقع الناس، وتجعل العزيز ذليلاً، والمطمئن خائفاً، والعامر خراباً.

ثم اختارت بلقيس طريق الاختبار: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾

هذه ليست سذاجة كما قد يظن البعض، بل سياسة اختبار.

هي تريد أن تعرف: أهذا ملك من ملوك الأرض يطلب توسعاً ومالاً، أم نبيٌّ صاحب رسالة؟

فإن قبل الهدية، فهمت أن الأمر أمر دنيا.

وإن ردها، علمت أن القضية أكبر من الذهب والفضة.

فالهدية هنا ليست محاولة شراء فقط، بل أداة كشف.
بلقيس تختبر معدن الخطاب الذي وصلها: هل هو خطاب سلطان أم خطاب
توحيد؟

وهنا تنتهي هذه المرحلة، وقد وضعت السورة أمامنا صورتين عظيمتين:

سليمان يرسل كتابًا يبدأ باسم الله.
وبلقيس تستقبل الكتاب بعقلٍ ومشاورة وحذر من الحرب.

وهذا من جمال سورة النمل:
لا تسطح الشخصيات.
لا تجعل بلقيس امرأة غافلة ولا ملكة حمقاء، بل تعرضها عاقلة، متزنة،
مدركة لعواقب الحرب، قادرة على اختبار المواقف، ثم تمضي بها شيئًا
فشيئًا نحو النور.

خلاصة الفصل

في هذا المشهد، يعلّمنا القرآن أن الكلمة قد تكون أبلغ من الجيش، وأن الكتاب
قد يفتح ما لا تفتحه السيوف، وأن القيادة الصادقة تثبت قبل الحكم، وتخطب
بوضوح، وتراقب الأثر.

كما يعلّمنا أن الحكمة قد تظهر في قلب ملكة لم تهتد بعد، وأن الإنسان قد
يكون بعيدًا عن التوحيد، ومع ذلك يحمل من العقل والإنصاف ما يجعله قريبًا
من باب الهداية.

ومفتاح هذا الفصل:

حين يكون الخطاب من عند عبدٍ يعرف الله، يبدأ باسم الله؛ وحين يكون القلب غير مغلقٍ تمامًا، لا يتعامل مع الرسالة بالاستهزاء، بل بالسؤال والمشاورة والاختبار.

ننتقل إلى لحظة انكشاف الفرق بين مملكةٍ تريد أن تختبر بالهدية، ونبيٍّ لا يقف مشروعه عند المال، ولا تُشتري رسالته بالذهب.

هنا يبلغ مشهد بلقيس وسليمان مرحلةً حاسمة:

هل القضية قضية سلطان يريد توسعة مملكه؟

أم قضية نبيٍّ يريد أن يردّ السجود إلى الله؟

الفصل السادس

حين تسقط الهدية أمام الرسالة

قال تعالى:

(فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿١﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢﴾ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣﴾ قَالَ عَفَرْتُ مِّنَ الْجَنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٤﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۚ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۚ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٥﴾ قَالَ نَكَرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرُ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٦﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٧﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۚ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٨﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ۚ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّنْ قَوَارِيرَ ۚ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ النمل: ٣٦-٤٤

حين وصلت الهدية إلى سليمان، لم يفرح بها، ولم يضعها في ميزان المكسب، ولم يقل: هذه دولة عظيمة بدأت تلين، فلنقبل منها ما يفتح باب التفاوض.

بل قال: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾

وهذه الكلمة وحدها تزلزل منطق الممالك.

فالملوك في العادة تفرح بما يمد سلطانها، ويزيد خزانتها، ويعلن خضوع الآخرين لها.

أما سليمان فكان فوق هذا الميزان؛ لأن القضية عنده لم تكن مألًا، بل سجودًا.

لم يكن يريد خزائن سبأ، بل يريد أن تتحرر سبأ من عبادة الشمس.

ثم قال: ﴿فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ﴾

هذا ليس تفاخرًا بالغنى، بل إعلان استقلال الرسالة عن الإغراء. كأنه يقول: ما جئكم محتاجًا إلى مالكم حتى تشتروا موقفي، ولا فقيرًا إلى هديتكم حتى تظنوا أن الذهب يغير وجه الحق. أنا عبدٌ أغناه الله بما آتاه، فلا تساوموني على دعوة الله.

ثم جاءت الجملة الدقيقة: ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾

أي أن الهدية عظيمة في ميزانكم أنتم، لا في ميزاني. أنتم تفرحون بها لأنها تمثل منطقتكم: منطق المال، والمجاملة، والسياسة، واختبار النفوس بالذهب.

أما أنا ففرحي ليس بما يدخل خزائني، بل بما يدخل القلوب إلى الإسلام.

وهذه من أعظم الآيات في تحرير الدعاة وأصحاب المبادئ: من كان صاحب رسالة لا تُربكه الهدايا، ولا تشتريه العطايا، ولا تجعله المجاملات ينسى أصل القضية.

فالهدية قد تكون جميلة في موضعها، لكنها إذا جاءت لتصرف الحق عن وجهته صارت فتنة.

ثم قال: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾

عاد الرسل بالهدية لا بالقبول.

وهنا تفهم بلقيس أن سليمان ليس ملكًا عاديًا؛ لأن الملوك إذا قُدمت لهم الهدايا رضوا، أو لانوا، أو فتحوا أبواب التسوية. أما هذا الملك فقد ردّ الهدية؛ إذن فالأمر ليس طمعًا في الدنيا.

ثم جاء الوعيد: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾

هذا ليس حبًا في الحرب، بل حسمٌ بعد إقامة الحجة. فالرسالة وصلت، والاختبار انتهى، والهدية رُدّت، وبقي أن تعرف المملكة أن العلو أمام دعوة الله ليس لعبة دبلوماسية.

ثم قال: ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾

لأن العلو إذا أصرّ أن يبقى علوًا أمام الحق، انقلب صغارًا. والعزة إذا لم تخضع لله، صارت قابلةً لأن تُكسر أمام جنود الله. فليست الذلة هنا مقصودة لذاتها، وإنما هي نتيجة طبيعية لمن أبى أن يترك علوه للحق.

ثم ينتقل المشهد انتقالًا مدهشًا: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾

لم يطلب سليمان مالها، بل طلب عرشها.
والعرش هنا ليس قطعة أثاث ملكية فحسب، بل رمز السيادة، ومركز
الهيبة، وعلامة الدولة، ومحل اعتزاز الملكة.

كأن سليمان يريد أن يوقظها بآية تمسّ عمق تصورها للقوة:
هذا العرش الذي تحرسه الممالك يمكن أن ينتقل بأمر الله قبل أن تصلي إليّ.
فإذا رأيت عرشك بين يديّ، فاعلمي أن وراء هذا الملك قدرة ليست من
جنس ملوك الأرض.

ثم قال العفريت من الجن: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ
لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾

هنا تتكلم القوة.

العفريت يعرض قدرته وأمانته:
قويٌّ على الحمل، أمينٌ على العرش.

وهذا مهم؛ لأن القوة بلا أمانة خطر، والأمانة بلا قدرة عجز.
وفي مقام التكليف الكبير لا يكفي أن يكون الإنسان صالح النية، بل لا بد أن
يكون قادرًا على أداء ما كُلف به.

لكن القرآن لا يقف عند هذا العرض، بل يفتح بابًا أعلى: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ
عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾

هنا يتقدم العلم على القوة.

العفريت قال: قبل أن تقوم من مقامك.
وصاحب العلم قال: قبل أن يرتد إليك طرفك.

وكان السورة تقول: القوة تبلغ زمنًا، والعلم المؤيد يبلغ ما هو أسرع وأبعد. ليست العبرة دائمًا بالأشد عضلاً، بل بالأقرب إلى العلم، والأوصل إلى سرّ التسخير.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ﴾

يا لعظمة هذه اللحظة.

عرش سبأ، الذي كان بعيدًا، محروسًا، مهيبًا، صار مستقرًا عند سليمان في طرفة عين.

لكن الأعظم من انتقال العرش هو انتقال قلب سليمان إلى الشكر فورًا.

قال: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾

لم يقل: هذا من سلطاني.

لم يقل: هذا من تسخير الجن لي.

لم يقل: هذا من علم من عندي.

بل قال: من فضل ربي.

وهنا تعرف لماذا استحق سليمان هذا الملك.

لأن النعمة مهما بلغت عنده لا تُنتج انتفاخ الذات، بل تفتح باب الاعتراف.

ثم قال: ﴿لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾

يا لهذه البصيرة النادرة.

كثير من الناس إذا جاءته النعمة قال: هذا دليل رضى.

أما سليمان فقال: هذا اختبار.

النعمة ليست دائماً راحة، بل امتحان.
والتمكين ليس نهاية الابتلاء، بل وجه آخر منه.
وقد يكون ابتلاء القصور أخطر من ابتلاء السجون، وامتحان العرش أدق
من امتحان الحب؛ لأن الألم يذكرّك بضعفك، أما النعمة فقد تخدعك بقوتك.

ثم قال: ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾

الشكر لا يزيد ملك الله شيئاً، بل ينقذ قلب الشاكر.
حين تشكر فأنت لا تمنّ على الله بعبادتك، بل تحمي نفسك من الغفلة،
وتحفظ النعمة من أن تتحول إلى حجاب.

ثم قال: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾

غنيٌّ عن شكر العباد.
كريمٌ لا تنقطع عطاياه بمجرد جحودهم.
وهذه من دقائق التعريف بالله: ليس غنياً قاسياً، بل غني كريم.
يعطي وهو غني، ويمهل وهو قادر، ويفتح للعبد باب الرجوع وإن جحد.

ثم قال سليمان: ﴿نَكْرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرُ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا
يَهْتَدُونَ﴾

التنكير هنا ليس عبثاً، بل اختبار للبصيرة.
يريد أن يرى: هل ستعرف عرشها حين يتغير؟
هل ستدرك الحقيقة إذا غيّرت الملامح؟
هل عندها من الفطنة ما يلتقط الجوهر خلف التبديل؟

وهذا اختبار عميق جدًا:

بعض الناس لا يعرفون الحق إلا إذا جاءهم بالصورة التي اعتادوها.
فإذا تغير شكله قليلاً أنكروه.

أما أهل البصيرة فيعرفون الشيء بآثاره وجوهره، لا بزخارفه الأولى.

فلما جاءت قيل لها: ﴿أَهْكَذَا عَرْشُكَ﴾

لم يقل لها: أهذا عرشك؟

بل قال: أهكذا عرشك؟

وفيها لطف في الاختبار؛ كأن السؤال يترك لها مساحة عقلية، لا يصددها
بالجواب.

فقالت:

﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾

يا لذكائها.

لم تتسرع فتقول: هو، لأن العقل يرى اختلافاً.

ولم تنكره فتقول: ليس هو، لأن البصيرة ترى شبهاً عظيماً.

قالت: كأنه هو.

إنها عبارة عقل متزن؛ لا يقع في الجزم المتعجل، ولا في الإنكار المكابر.

ومن هنا نفهم لماذا كانت قريبة من الهداية؛ لأن القلب الذي لا يكابر أمام

الدهشة، والعقل الذي لا يتهور في الحكم، يكونان أقرب إلى النور.

ثم قال تعالى: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾

أي أن سليمان ومن معه لم يكونوا ينتظرون العرش ليؤمنوا؛ فقد سبقهم العلم والإسلام.

أما بلقيس فهي الآن تمشي من الدهشة إلى المعرفة، ومن المعرفة إلى التسليم.

ثم تأتي آية فاصلة: (وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ)

وهذه آية عظيمة في فهم أثر البيئة على الإنسان. بلقيس لم تكن غبية، ولا خالية من الحكمة، ولا فاقدة للعقل. لكن عبادتها السابقة، وبيئتها، وقومها، وتراثها الوثني؛ كل ذلك صدّها عن الله.

وهنا يظهر عدل القرآن في تصوير الناس: قد يكون في الإنسان عقل، وحكمة، وقيادة، ورزانة، لكنه يبقى مصدودًا بما ورثه من قومه، حتى تأتیه آية تهزّ المألوف، وتفتح في داخله طريقًا جديدًا.

ثم جاءت آخر آية في المشهد: (قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ)

دخلت إلى موضعٍ جديد، إلى مشهدٍ معماري عجيب، إلى صرحٍ ممرّد من قوارير.

(فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا)

رأت الزجاج الصافي فظنته ماءً.

وهنا اختبار آخر: العين قد تخطئ إذا حكمت على الظاهر وحده.
ما رآته ماءً لم يكن ماءً، وما حسبته لجةً كان صرحًا من قوارير.

كأن السورة تضع أمام بلقيس درسًا حسيًا في معنى أعمق:
ليس كل ما ترينه كما تظنين.

لقد كنتِ ترين الشمس إلهاً، وهي مخلوق.
وترين العرش مركز القوة، فإذا به ينتقل.
وترين الصرح لجةً، فإذا هو قوارير.

فراجعي رؤيتك كلها؛ فإن العين التي أخطأت في الزجاج قد تخطئ في
الوجود، وإن البصيرة تحتاج إلى نور الله حتى ترى الأشياء على حقيقتها.

قال سليمان: **(إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ)**

هنا انكشف الخطأ، لا بإهانة، بل ببيان.
وهكذا تكون الهداية الرفيعة: لا تكسر الإنسان، بل تكشف له موضع الوهم
حتى يخرج منه بنفسه.

ثم جاءت اللحظة العظمى: **(قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي)**

لم تقل: ظلمني قومي.

ولم تقل: ورثت هذا عن آبائي.

ولم تقل: كنت ملكة مشغولة بشؤون الحكم.

بل بدأت من نفسها: **ظلمت نفسي.**

وهذه أول عتبة في صدق التوبة: أن يكف الإنسان عن توزيع المسؤولية كلها خارج ذاته، وأن يقول أمام الله: أنا ظلمت نفسي.

ثم قالت: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

ما أجمل قولها: مع سليمان، لا لسليمان. فهي لم تنتقل من عبادة الشمس إلى الخضوع لرجل، بل إلى الله. وسليمان في هذا المشهد ليس غاية، بل رفيق هداية، ودليل طريق.

﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

كانت تسجد للشمس، وهي جزء من العالم. فأسلمت لرب العالمين، مالك الشمس وما فوقها وما دونها. وهكذا تنتهي قصة بلقيس لا بهزيمة ملكة، بل بولادة نفس. لا بسقوط عرش، بل باستقامة سجود. لا بإذلال امرأة، بل بتحريرها من عبادة مخلوق إلى عبادة الخالق.

خلاصة الفصل

هذا المشهد من سورة النمل يعلمنا أن المال لا يشتري الرسالة، وأن الهدية إذا جاءت لتساوم الحق رُدَّت، وأن النعمة عند المؤمن امتحان لا مجال للغرور، وأن الهداية قد تمرّ عبر سلسلة من الصدمات اللطيفة التي تكشف للإنسان خطأ نظره.

ومفتاح هذا الفصل:

بلقيس لم تهزم حين أسلمت، بل تحررت؛ لأن أعظم نصر للإنسان أن يخرج من سجوده للمخلوق إلى سجوده لله رب العالمين.

ننتقل إلى مشهدٍ جديدٍ من سورة النمل:

بعد مملكة سليمان وبلقيس، وبعد الهداية التي جاءت من باب الرسالة والدهشة، تنتقل السورة إلى قوم ثمود؛ إلى أمةٍ لم ينقصها البيان، ولكنها اختارت العناد، ولم يعجزها أن ترى الآية، ولكنها جعلت الآية خصمًا لشهوتها وكبرها.

الفصل السابع

صالح و ثمود: حين يتحول الإصلاح إلى تهمة

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ۝ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ۚ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ ۚ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتِنُونَ ۝ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۝ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ۝ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرَنَا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ فَنَنْظُرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ النمل: ٤٥-٥٣

تبدأ الآيات بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾

ما أرق كلمة أخاهم في موضع الرسالة.

فالرسول لم يأتهم غريبًا عنهم، ولا وافدًا من خارج تاريخهم، بل جاءهم من لحمهم ودمهم، يعرف لغتهم، وطباعهم، ووجوههم، ومداخل نفوسهم.

وهذه من رحمة الله بالأمم؛ أن يبعث فيهم من يعرفونه، حتى لا تكون الغربة حجابًا بينهم وبين الحق.

ولكن بعض النفوس إذا فسدت، لا يزيدها قرب المصلح إلا ضيقًا؛ لأنها لا تريد الحق ولو جاءها من أقرب الناس.

ثم جاء لبّ الرسالة: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾

كلمة واحدة تختصر كل الصراع.

ليست المشكلة في صالح عليه السلام أنه أراد جاهًا، أو مالًا، أو زعامَةً على قومه.

كل دعوته أن يعود السجود إلى موضعه، وأن تتحرر النفوس من عبودية غير الله.

لكن ماذا حدث؟

﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾

بمجرد أن جاءت دعوة التوحيد، انقسم المجتمع.

وهذه سنة تتكرر: الحق حين يدخل المجتمعات المريضة لا يتركها في سكونها الزائف، بل يكشف ما فيها.

كانوا قبل الدعوة يبدون أمةً واحدة، فلما جاء صالح ظهر أن الوحدة لم تكن وحدة حق، بل غطاءً هشاً فوق اختلافٍ عميق في القلوب.

ثم قال صالح: ﴿يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾

يا لجمال هذا العتاب.

كأنه يقول لهم: لماذا تختارون طريق العذاب قبل طريق الرحمة؟

لماذا تستدعون العقوبة، والباب إلى المغفرة مفتوح؟

لماذا تسابقون إلى الهلاك، وقد عُرضت عليكم النجاة؟

إن الإنسان حين يفسد ذوقه الإيمانى قد يستعجل ما يضره، ويستهزئ بما ينقذه، ويطلب نزول العقوبة كأنها لعبة، لأنه لا يدرك أن حلم الله ليس عجزاً، وأن تأخر العذاب ليس إلغاءً له.

ثم قال: **(لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)**

هنا يظهر قلب النبي.

مع أنهم يخاصمونهم، ويناوئونهم، ويكذبونه، لم يغلق في وجوههم باب الرحمة.

دلهم على الاستغفار؛ لأن الاستغفار ليس مجرد لفظٍ يقال، بل عودة من العبد إلى موضعه الصحيح.

كأن صالحاً يقول: لا تحتاجون إلى معجزة جديدة بقدر ما تحتاجون إلى انكسار صادق.

فالرحمة قريبة، ولكن بابها الاستغفار.

لكنهم بدل أن يستغفروا، اتهموا: **(قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ)**

وهذه من أقدم حيل المجتمعات الفاسدة:

أن تجعل المصلح سبب البلاء، مع أن البلاء الحقيقي في فسادها.

بدل أن تقول: ذنوبنا جلبت الشؤم، تقول: وجودك بيننا هو الشؤم.

وبدل أن تراجع نفسها، تتهم من دعاها إلى النجاة.

وهنا تكشف السورة مرضاً اجتماعياً خطيراً: حين تعجز الأمة عن مواجهة

فسادها الداخلي، تبحث عن شماعة مقدسة أو سياسية أو اجتماعية تعلق

عليها خوفها وانهيارها.

فجاء جواب صالح: ﴿طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾

أي أن ما يصيبكم ليس بسبب صالح ومن معه، بل هو عند الله، مرتبط
بسنتكم وأعمالكم وموقفكم من الحق.
الشؤم الحقيقي ليس في الداعية، بل في الذنب.
وليس في صوت الإصلاح، بل في مقاومته.

ثم قال: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾

هذه كلمة دقيقة.

ليست القضية مجرد سوء حظ، ولا مجرد ظرف خارجي، بل فتنة.
أنتم تختبرون: هل ستردون الأمر إلى الله، أم ستبقون أسرى الخرافة
والاتهام؟

هل ستبصرون العيب في داخلكم، أم ستصنعون عدوًا من نبيكم؟

ثم يكشف القرآن مركز الفساد: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي
الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾

ليس كل المجتمع على الدرجة نفسها من الإجرام، لكن في المدينة نواة فساد
تقود الانحراف.

تسعة رهط، جماعة صغيرة، لكنها فاعلة في الشر.

وهذا يعلمك أن فساد المدن لا يحتاج دائمًا إلى كثرة عددية، بل إلى قلة
منظمة تملك الجرأة على الإفساد، وتجبر وراءها الصامتين والخائفين
والمخدوعين.

والقرآن يصفهم وصفًا حاسمًا: ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾

ليس عندهم شيء من الإصلاح يوازن فسادهم.

وجودهم تخريب خالص.

هم لا يخطئون ثم يصلحون، ولا يفسدون في جانب ويحسنون في آخر؛ بل صارت هويتهم العملية: إفساد بلا إصلاح.

ثم قالوا: ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾

يا لهول هذا المشهد.

يحلفون بالله على جريمة.

يستدعون اسم الله ليغطوا به مكرهم ضد نبي الله.

وهذا من أقبح صور الانحراف:

حين تتحول الأيمان إلى غطاء للاغتيال، وحين يُذكر اسم الله لا للخشية، بل لتوثيق الشر، وحين يتدين الفساد في ظاهره ليخفي فجوره في باطنه.

﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾

لم يريدوا مواجهة علنية، بل تبییًا.

والتبیین يحمل معنى الظلام، والخفاء، والغدر، والهجوم على الغافل في ليله.

فالفساد حين يعجز عن مقارعة الحق بالحجة، ينتقل إلى الاغتيال.

ثم قالوا: ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾

جريمة كاملة: قتل، ثم كذب، ثم تمثيل البراءة، ثم تأكيد الصدق زورًا. وهكذا يعمل المكر الفاسد: لا يكفي بالفعل القبيح، بل يصنع له روايةً نظيفة، وبيانًا إعلاميًا، وشهادةً مزورة.

لكنهم نسوا أن المكر حين يغيب عن أعين الناس لا يغيب عن الله.

قال تعالى: ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكْرُنا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

هذه آية تهز القلب.

مكرهم كان في الظلام، ومكر الله فوق إدراكهم.

هم يخططون، والله يحيط.

هم يرتبون مسرح الجريمة، والله يرتب عاقبة المجرمين.

ومكر الله ليس كيد ظلم، تعالى الله، بل تدبير عدلٍ يردّ مكر المفسدين عليهم من حيث لا يشعرون.

فإذا بالمؤامرة التي ظنوها محكمة تتحول إلى طريق نهايتهم.

ثم قال: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾

لا تنظر إلى براعة الخطة في بدايتها.

انظر إلى عاقبتها.

فالمكر يبدو قويًا وهو يتحرك في الخفاء، لكنه حين يصطدم بقدر الله ينكشف ضعفه.

﴿أَنَا دَمَرْنَا هُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

لم ينبُج المجرمون بمكرهم، ولم تنجُ الأمة التي احتضنت فسادهم أو رضيت به أو سكنت عنه.

وهنا درس مخيف: أن الفساد إذا صار له قادة، وله جمهور صامت، وله بيئة تتسامح معه، صار الهلاك أوسع من دائرة المتآمرين وحدهم.

ثم قال: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا﴾

البيوت التي امتلأت يوماً بالحركة، والكلام، والخطط، والغرور، صارت خاوية.

كم في هذه الكلمة من صمتٍ بعد ضجيج.

القرآن لا يعرض الخراب كأثر معماري فقط، بل كعاقبة أخلاقية: ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾

لم تخوَّ بيوتهم لأن الزمن دار، ولا لأن الريح مرت، بل لأن الظلم أهلك أصحابها.

الظلم يفرغ البيوت من أهلها، ويفرغ المدن من روحها، ويفرغ الحضارات من معناها قبل أن تسقط حجارته.

ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

ليست الآية في الخرائب لمن يمر عليها بعينه فقط، بل لمن يقرأها بعلمه وبصيرته.

كم من إنسان يرى آثار الهالكين فلا يعتبر؛ لأن العين وحدها لا تكفي، لا بد من علمٍ يربط العاقبة بالسبب، والخراب بالظلم، والسقوط بمقاومة الحق.

ثم يختم المشهد بقوله: ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾

في قلب الدمار هناك نجاة.
وفي لحظة الهلاك العام هناك حفظٌ خاص.
ليست السنن عمياء؛ الله يفرق بين المفسد والمتقي، وبين من مكر ومن آمن،
وبين من حمل مشروع الاغتيال ومن حمل خشية الله.
والآية لم تقل فقط: آمنوا، بل قالت: ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾

لأن الإيمان الذي لا يصحبه تقوى قد يضعف أمام الفتنة.
أما هؤلاء فكانوا يعيشون الإيمان مراقبةً وخشيةً ونجاةً داخل زمن ملوث
بالمكر.

خلاصة الفصل

مشهد صالح وثمرود في سورة النمل يعلمنا أن دعوة التوحيد تكشف
المجتمعات، وأن المفسدين إذا عجزوا عن إسكات الحق بالحجة لجأوا إلى
التهمة، ثم إلى المكر، ثم إلى العنف.

ويعلمنا أن أخطر ما في المدن ليس كثرة أهلها، بل وجود رهطٍ منظمٍ يفسد
ولا يصلح، وأن الله يمهل المكر حتى يظن أصحابه أنه نجح، ثم يأخذه من
حيث لا يشعرون.

ومفتاح هذا الفصل:

حين يتآمر المفسدون في الظلام، لا يكونون وحدهم؛ فالله يرى، ويمهل،
ويدبر، ثم يجعل مكرهم باباً إلى هلاكهم ونجاة المتقين.

ننتقل إلى مشهد لوط عليه السلام؛ حيث تعرض سورة النمل صورةً أخرى من صور الانحراف، لا انحراف العقل أمام البرهان كما في فرعون، ولا انحراف المكر السياسي كما في ثمود، بل انحراف الفطرة حين تُقلب الموازين حتى يصير الطهر عيبًا، ويصير الفساد عادةً يُدافع عنها.

الفصل الثامن

لوط وقومه: حين يصبح الظهر تهمة في مدينة الفساد

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ۝ أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ ۝ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ۝ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ۖ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾ النمل: ٥٤-٥٨

يبدأ المشهد بقوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾

وكان السورة بعد أن عرضت مكر ثمود، تنتقل إلى فساد من نوع آخر. ثمود كان فيها رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون، أما قوم لوط فقد صار الفساد عندهم ثقافة جماعية، وجرأة معلنة، ومقاومة للظهر نفسه.

قال لهم لوط: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾

هذه ليست معصية عابرة في غفلة، بل فاحشة ثرتكب مع نوع من البصر والمعرفة.

﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾؛ أي لستم في ظلام الجهل البسيط، ولا في غياب الإدراك، بل ترون قبح ما تفعلون، وتدركون شذوذه عن الفطرة، ومع ذلك تمضون فيه.

وهنا يكون الذنب أشد؛ لأن الخطأ إذا وقع في غفلة كان له باب رجوع قريب، أما إذا وقع مع إبصار وإصرار ومجاهرة، صار انحرافاً في الإرادة لا في المعرفة فقط.

ثم بيّن لهم حقيقة الفاحشة: ﴿أَنتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾

القرآن هنا لا يترك الأمر غامضاً، بل يسمي الانحراف باسمه، ويكشف أنه خروج بالشهوة عن موضعها الذي فطر الله الناس عليه. وليست القضية مجرد فعل جسدي، بل انقلاب في معنى الفطرة، وتشويه لعلاقة الإنسان بجسده وغريزته وحدود ربه.

ثم قال: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾

والجهل هنا ليس نقص معلومات فقط. إنه جهل الفطرة، وجهل العاقبة، وجهل قدر الله، وجهل النفس حين تتبع شهوتها حتى تظن الانحراف حرية. كم من إنسان يملك معرفة كثيرة، لكنه جاهل بموضع الطهارة في نفسه. وكم من مجتمع يتقدم في أدواته، ثم ينهار في فطرته، فيكون جاهلاً ولو ازدحم بالكلام والثقافة والترف.

ثم جاء جواب القوم: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ﴾

يا لهول هذا الانقلاب.

لم يناقشوا الحجة.

لم يراجعوا الفعل.

لم يسألوا أنفسهم: هل نحن على حق؟
بل قرروا طرد أهل الطهر.

وهكذا يفعل الفساد حين يستحكم: لا يكتفي بأن يُسمح له بالوجود، بل يريد
أن يطرد من يذكره بقبحه.

المنحرف في أول الأمر يطلب التساهل، ثم يطلب الاعتراف، ثم يطلب
إسكات الناصح، ثم يطلب نفي الطاهرين من المشهد كله.

قالوا: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ﴾

نسبوا القرية إلى أنفسهم: قريبتكم.

كأن الطاهرين غرباء عن الأرض التي يسكنونها، وكأن الفساد إذا كثر
صار يظن المكان ملكاً له، وأن الطهر دخيلٌ يجب أن يُنفى.

ثم ذكروا علة الطرد: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾

يا للعجب.

صار التطهر تهمة.

وصارت العفة جريمة.

وصار الامتناع عن الفاحشة سبباً للإخراج.

هذه من أبلغ آيات القرآن في تصوير المدن إذا انقلب ميزانها:

حين يفسد الذوق العام، لا يعود الناس يكرهون القبح فحسب، بل يكرهون
الطهر؛ لأن وجود الطاهرين يفضحهم صامتاً.

فالطاهر لا يحتاج دائماً أن يتكلم؛ مجرد وجوده يذكر الفساد بما هرب منه.

ثم جاء قضاء الله: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾

في مدينةٍ قررت إخراج الطاهرين، تولى الله إخراجهم نجاةً لا نفياً. هم أرادوا طرد آل لوط عقوبةً لهم، فجعل الله خروجهم باب حفظ. وهنا يتجلى لطف الله بأوليائه: قد يريد الفاسدون إخراجك إهانةً، فيجعل الله ذلك الإخراج نجاةً من الهلاك القادم.

ثم قال: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا هَا مِنْ الْغَابِرِينَ﴾

وهنا معنى شديد الرهبة: القرب من الصالحين لا ينفع إذا لم يكن القلب معهم.

امرأة لوط كانت في بيت نبي، لكنها لم تكن في نجاته. فالنجاة ليست بمجرد المجاورة، ولا بالاسم، ولا بالصلة الاجتماعية، بل بالإيمان والموقف.

كم من إنسان يكون قريباً من أهل الحق في الظاهر، بعيداً عنهم في الباطن. والساعة التي تنزل فيها سنن الله لا تنفع فيها القرابة إذا غاب الإيمان.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾

المطر في الأصل رحمة، لكنه هنا صار عذاباً. وهذه من أعجب صور الانقلاب في الجزاء: كما قلبوا الفطرة، انقلب عليهم ما اعتاد الناس أن يكون رحمةً، فصار نقمة.

ثم ختم: ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾

لقد أنذروا، فلم يكن العذاب مفاجأةً بلا رحمة سابقة.
 جاءهم نبي، وسمعوا التحذير، وعرفوا الفاحشة، وأبصروا، ومع ذلك
 اختاروا الجهل والمكابرة وطرده الطاهرين.
 فكان المطر السيئ خاتمة مدينة جعلت الطهر تهمة، والفاحشة نظامًا،
 والناصح غريبًا.

خلاصة الفصل

مشهد لوط في سورة النمل يعلمنا أن أخطر ما يصيب المجتمعات ليس مجرد
 وقوع الفاحشة، بل أن تتحول الفاحشة إلى هوية مدافع عنها، وأن يصبح
 الطهر سببًا للإقصاء، وأن يُطرد أهل العفة لا لشيء إلا لأنهم يتطهرون.
 ويعلمنا أن النجاة لا تُقاس بالقرب الظاهري من الصالحين، بل بحقيقة الإيمان
 والموقف، وأن الله قد يجعل خروج المؤمنين من مدينة الفساد رحمةً قبل نزول
 العقوبة.

ومفتاح هذا الفصل:

حين تصبح الطهارة تهمةً في مدينة ما، فاعلم أن تلك المدينة لم تعد تخاف
 الذنب فقط، بل صارت تخاف المرأة التي تكشف قبحه.

ننتقل إلى مقطع جديد في سورة النمل، بعد أن عرضت السورة مصائر
 الممالك والأمم: موسى وفرعون، وسليمان وبلقيس، وصالح وثمود، ولوط
 وقومه.

هنا ينتقل الخطاب من القصص إلى المحاكمة الكونية الكبرى: من ربُّ هذا

كله؟ من يدبّر؟ من يخلق؟ من يرزق؟ من يجيب المضطر؟ من يبدأ الخلق
ثم يعيده؟

الفصل التاسع

أَلِلهُ مَعَ اللَّهِ؟ حِينَ يَحَاكُمُ الْقُرْآنُ أَوْهَامَ الشَّرِكِ أَمَامَ بَرَاهِينِ الْكُونِ

قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ ۞ اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۞ أَلِلهُ مَعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۞ أَلِلهُ مَعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۞ أَلِلهُ مَعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ۝ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۞ أَلِلهُ مَعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۞ أَلِلهُ مَعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ النمل: ٥٩-٦٤

بعد مشاهد الهلاك والنجاة، وبعد قصص الاصطفاء والتمكين، يأتي الأمر:

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾

كأن السورة تقول: بعد أن رأيت كيف ينجي الله المؤمنين، وكيف يهلك المفسدين، وكيف يرفع عباده المصطفين، وكيف يكشف زيف العروش إذا خلت من التوحيد؛ فاختم النظر بالحمد.
الحمد هنا ليس كلمة تقال بعد النعمة فقط، بل موقف من الوجود كله.

أن ترى التاريخ، والخلق، والنجاة، والهلاك، والملك، والرسالة، ثم تقول:
الحمد لله.

ثم قال: ﴿وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾

سلامٌ على موسى في مواجهة فرعون.
وسلامٌ على داود وسليمان في مقام العلم والشكر.
وسلامٌ على صالح ولوط في صبر الرسالة وسط فساد الأقوام.
وسلامٌ على كل عبدٍ اصطفاه الله فحمل الحق في زمنٍ يضيق بالحق.

ثم يأتي السؤال الحاسم: ﴿اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

والسؤال هنا ليس طلباً للمقارنة الحقيقية؛ إذ لا مقارنة بين الخالق
والمخلوق، ولا بين الرب وما يُشركون.
إنه سؤال يوقظ الفطرة من غفلتها: كيف تتركون الله إلى ما لا يخلق، ولا
يرزق، ولا يهدي، ولا يجيب، ولا يملك موتاً ولا حياةً ولا نشوراً؟
ثم يبدأ القرآن في عرض براهين التوحيد.

أولاً: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾

السؤال يبدأ من الأعلى والأوسع: السماوات والأرض.
كأن القرآن يرفع رأس الإنسان من ضيق صنمه، ومن ضيق عادته، ومن
ضيق موروثه، ليقول له: انظر إلى السقف العظيم، وإلى الأرض الممتدة،
من خلق هذا كله؟

ثم يقول: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾

الماء هنا ليس تفصيلاً طبيعياً بارداً، بل رحمة نازلة.
قطرة الماء في القرآن ليست مادةً فقط، بل آية.
تنزل من السماء، فتوقظ الأرض، وتردّ الحياة إلى ما كان هامداً.

ثم قال: ﴿فَأَنبَتْنَا بِهِ حَرَاقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾

تأمل لفظة بهجة.

لم يقل فقط: حرائق نافعة، أو مثمرة، بل ذات بهجة.
لأن الله لا يخلق الضروري وحده، بل يخلق الجمال أيضاً.
في الرزق منفعة، وفي الخلق زينة، وفي النبات غذاءً وبهجة.
كأن الجمال نفسه شاهدٌ على كرم الخالق.

ثم قال: ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾

هذه الجملة تردّ الإنسان إلى حجمه الحقيقي.
أنت تحرث، وتزرع، وتسقي، وتنتظر، لكن سرّ الحياة ليس في يدك.
تضع البذرة في التراب، ولا تعرف كيف تنفلق في الظلام.
تراها تخرج، ولا تملك أن تمنحها روح الإنبات.
فمن الذي أودع في الحبة هذا السر؟
ومن الذي جعل الماء مفتاحاً للحياة؟
ومن الذي جعل الأرض رحماً للنبات؟

ثم يأتي السؤال المتكرر كالمطرقة على جدار الشرك: ﴿أَلِلَّهِ مَعَ اللَّهِ﴾

أي بعد هذا كله، هل يبقى في القلب موضعٌ لغيره؟

هل مع الله إلهٌ خلق؟

هل مع الله إله أنزل؟

هل مع الله إله أنبت؟

هل مع الله إله أخرج البهجة من التراب؟

ثم قال: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾

أي يعدلون بالله غيره، ويميلون عن الحق.

والشرك في حقيقته اختلال في الميزان؛ أن تجعل من لا يملك شيئاً في موضع من يملك كل شيء.

ثم ينتقل البرهان إلى الأرض: ﴿أَمْنَ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾

الأرض قرار؛ أي موضع استقرار.

نمشي عليها ولا نشعر بعظمة النعمة.

نبني، ونزرع، وننام، ونطمئن، كأن الثبات حق مكتسب، مع أنه نعمة مستمرة.

لو اضطربت الأرض تحتنا لحظة واحدة، لعرفنا أن القرار منحة لا عادة.

ثم قال: ﴿وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا﴾

الأنهار عروق الرحمة في جسد الأرض.

تمضي بين اليابسة، فتحمل الحياة إلى المدن والزرع والإنسان والحيوان.

وكل نهر جارٍ شاهدٌ على أن الله لم يخلق الأرض صماء، بل جعل فيها مسالك للرزق.

ثم قال: ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي﴾

الجبال ليست مجرد ارتفاعات صامتة، بل رواسي.
علامات ثبات، ومظاهر هيبة، وشواهد على قدرة الله في بناء الأرض
وتقديرها.

ثم قال: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾

بحران يلتقيان، وبينهما حاجز من أمر الله.
الماء يجاور الماء، ومع ذلك لكل نظامه وحدّه.
وهنا ترى أن الكون ليس فوضى مواد، بل هندسة حكمة.
كل شيء بقدر، حتى التقاء المياه.

ثم يعود السؤال: ﴿أَلِلَّهِ مَعَ اللَّهِ﴾

أي هل شارك أحدٌ في جعل الأرض قرارًا؟
هل وضع أحدٌ الأنهار في مجاريها؟
هل أرسى أحدٌ الجبال؟
هل أقام أحدٌ الحواجز بين البحار؟

ثم قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

والجهل هنا ليس غياب المعلومة فقط، بل غياب الوعي بالله من وراء
المعلومة.
قد يعرف الإنسان قوانين الماء واليابسة، لكنه لا يعرف رب الماء واليابسة.
وقد يدرس الظاهرة، ثم ينسى الآية.

ثم يأتي البرهان الأشد اقترابًا من القلب: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾

يا الله.

هنا لا يخاطب القرآن عين الإنسان في السماء والأرض فقط، بل يخاطب ذاكرته الداخلية.

كل إنسان يعرف لحظة الاضطرار.

تلك اللحظة التي تسقط فيها الأقنعة، وتفشل الأسباب، وتضيق الأرض، ويخرج الدعاء من أعماق نقطة في الروح.

المضطر لا يتفلسف.

المضطر لا يزخرف الكلام.

المضطر يعرف الطريق إلى الله بالفطرة؛ لأن الحاجة إذا بلغت نهايتها مزقت حجب الغفلة.

(إِذَا دَعَاهُ)

لم يقل: إذا أحسن العبارة، ولا إذا رتب المقدمات، بل إذا دعاه. فالله يسمع صوت المنكسر حين لا يسمعه أحد، ويرى يد الغريق حين تغيب عن عيون الناس، ويعلم وجع القلب حين يعجز اللسان عن شرحه.

ثم قال: (وَيَكْشِفُ السُّوءَ)

ليس فقط يخففه، بل يكشفه.

يرفع الغمة، ويفتح الباب، ويبدل الحال، ويمسح عن القلب ما كان يظنه نهاية.

وكم من سوء ظن الإنسان أنه سيقوم في حياته أبدًا، ثم كشفه الله في لحظة.

ثم قال: (وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ)

من الاضطرار الفردي إلى الاستخلاف العام.
الله لا يجيب دعائك في لحظة ضعفك فقط، بل هو الذي جعل الإنسان يخلف
غيره في الأرض، جيلاً بعد جيل، وأمةً بعد أمة.
فمن كان بيده كشف السوء عن فرد، بيده كذلك تداول الأمم ومصائر
الحضارات.

ثم يأتي السؤال: (أَلِلَّهِ مَعَ اللَّهِ)

من الذي تجري إليه في اضطرارك؟
من الذي تتأديه حين تنقطع الحيل؟
من الذي يكشف السوء إذا أغلقت الأبواب؟
هل هناك إله مع الله؟

ثم قال: (قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ)

لأن المشكلة أن الناس يذكرون الله في الاضطرار، ثم ينسونه في السعة.
يعرفونه في العاصفة، ثم يغفلون عنه على الشاطئ.
يرفعون أيديهم حين يضيق الطريق، ثم إذا كشف السوء عادوا إلى غرورهم
القديم.

ثم ينتقل إلى ظلمات البر والبحر: (أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)

الإنسان ضعيف جداً حين يضيع.
في الصحراء إذا تشابهت الجهات، وفي البحر إذا تراكم الظلام، يعرف
الإنسان أن الهداية ليست فكرةً نظرية.
الاهتداء طريق نجاة.

والقرآن يذكرهم بالهداية الحسية ليوصلهم إلى الهداية الكبرى:
من هداك في ظلمات البر والبحر قادر أن يهديك في ظلمات الشبهة والشهوة
والخوف والضلال.

ثم قال: ﴿وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾

الريح تأتي قبل المطر، كالبشارة قبل العطاء.
تحمل في حركتها وعد الرحمة.
وكان الكون نفسه يعرف مقدمات الفرج: رياح تبشر، ثم غيث ينزل، ثم
أرض تحيا.

ثم يأتي السؤال: ﴿أَلِلَّهِ مَعَ اللَّهِ﴾

ثم يأتي التنزيه: ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

تعالى في ذاته، وتعالى في أفعاله، وتعالى في ربوبيته، وتعالى عن كل
شريكٍ موهوم.

كلما عرضت الآيات دلائل القدرة، ظهر الشرك أصغر وأقبح.

ثم يأتي البرهان الأخير في هذا المقطع: ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾

الخلق الأول دليل على الإعادة.

من بدأ قادر أن يعيد.

ومن أخرج الحياة أول مرة لا يعجزه أن يبعثها مرة أخرى.

إن مشكلة المكذابين بالبعث أنهم يتعجبون من الإعادة وينسون البداءة.

ثم قال: ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾

الرزق يأتيك من فوقك ومن تحتك.
من السماء ماءً ونورٌ وتقدير.
ومن الأرض نباتٌ ومعادنٌ وأقوات.
أنت محاط بالرزق من جهات لا تملكها، ثم تظن أنك مستقل؟
ثم يأتي السؤال للمرة الأخيرة في هذا المقطع: (أَلِلَّهِ مَعَ اللَّهِ)
ثم يختم بالتحدي: (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

وهنا ينتهي الجدل العاطفي ويبدأ ميزان البرهان.
إن كان مع الله إله، فأين البرهان؟
إن كان الشرك حقًا، فأين دليله؟
إن كانت الأصنام تخلق أو ترزق أو تهدي أو تجيب المضطر، فهاتوا
برهانكم.

والشرك كله ينهار عند كلمة: هاتوا برهانكم.
لأنه يعيش على العادة، والخرافة، والوراثة، والخوف، والتزيين، لا على
البرهان.

خلاصة الفصل

هذا المقطع من سورة النمل يضع الإنسان أمام محكمة الكون:
السموات، والأرض، والماء، والحدائق، والأنهار، والجبال، والبحار، ودعاء
المضطر، وظلمات البر والبحر، والرياح، والخلق، والرزق؛ كلها تشهد أن
الله وحده هو الرب.

ومفتاح هذا الفصل:

القرآن لا يطلب من الإنسان أن يؤمن في فراغ، بل يوقظه إلى أن كل ما حوله، وكل ما في ذاكرته من لحظات اضطرار، كان يقول له دائماً: إله مع الله؟

ننتقل إلى مقطعٍ شديد العمق من سورة النمل؛ بعد أن أقامت السورة براهين التوحيد في الكون والنفس والاضطرار والرزق والخلق، تنتقل الآن إلى قضية الغيب والبعث وموقف المكذابين منهما.

هنا يتجلى الفرق بين قلبٍ يعرف حدوده أمام الله، وقلبٍ يتجرأ على الغيب كأنه يملك مفاتيحه.

الفصل العاشر

الغيب والبعث: حين يعمى الإنسان عن الآخرة فيضيع معنى الحاضر

قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۚ﴾ ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ۚ بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ۚ﴾ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَنِنَا لَمُخْرَجُونَ ۚ﴾ ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۚ﴾ ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ۚ﴾ ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ۚ﴾ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۚ﴾ ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ۚ﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۚ﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ﴾ ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ النمل: ٦٥-٧٥

يبدأ المقطع بقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾

هذه آية تضع الخلق جميعاً في موضعهم الصحيح.

كل من في السماوات والأرض، على اختلاف مراتبهم وقواهم ومقاماتهم، يقفون عند باب الغيب عاجزين، إلا من أطلعه الله على شيء منه.

الغيب ليس ساحةً مفتوحةً لادعاءات البشر، ولا حقلاً يتلاعب فيه الكهنة والدجالون والمتخرصون، بل هو ملك الله. ومن ظن أنه يملك الغيب فقد نازع الله فيما اختص به نفسه.

وهنا يربي القرآن القلب على أدبٍ عظيم:

أن تعرف ما لا تعرف.

أن تقف عند حدّك.

أن تقول حين لا تعلم: الله أعلم.

فليس الجهل بالغيب نقصاً في الإنسان، بل النقص أن يدّعي ما ليس له.

ثم قال: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾

حتى أعظم قضية تنتظر الإنسان، وهي البعث، لا يعلم الخلق موعدها. يمشي الإنسان في الدنيا، يخطط، ويبني، ويخاصم، ويجمع، ويؤجل التوبة، ويظن أن المدى مفتوح، وهو لا يدري متى يبعث، ولا متى يوقف، ولا متى ينادى.

وهذه وحدها كافية لأن تكسر غرور الإنسان بالزمن. فأنت لا تملك موعد خروجك من الدنيا، ولا موعد قيامك لله، فكيف تعيش كأنك المالك المطلق لأيامك؟

ثم تأتي آية عجيبة في تصوير اضطراب المكذبين: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلٌ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلٌ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾

كأن الآية تصعد في كشف طبقات العمى:

أولاً: علمهم متدارك مضطرب لا يبلغ اليقين.

ثم: هم في شك منها.

ثم: هم منها عمون.

ليست القضية نقص معلومة فقط، بل عطب بصيرة.

فالآخرة ليست بعيدة لأنها غير معقولة، بل لأن القلوب غطاها العمى.

والإنسان حين يعمى عن النهاية، يفسد فهمه للبداية والطريق؛ لأن من لا يؤمن بالآخرة سيقراً الحياة قراءة ناقصة، ويحسب الربح بما يدخل يده، لا بما ينجو به قلبه.

ثم يعرض القرآن قول المكذبين: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَنِنَّا لَمُخْرَجُونَ)

سؤالهم ليس سؤال طالب حق، بل سؤال مستبعد مستهزئ.

إنهم ينظرون إلى التراب، وينسون من خلق الإنسان أول مرة.

يتعجبون من الإعادة، ولا يتعجبون من البدء.

ومن أعماه الإنكار رأى البعث غريباً، مع أنه يعيش كل يوم بين مشاهد

الإحياء: أرض تموت ثم تحيا، بذرة تختفي ثم تخرج، نوم يشبه الموت ثم يقظة تشبه البعث.

ثم يقولون: (لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

وهذه حجة قديمة تتكرر في كل زمن:

لأن الوعد تأخر في ظنهم، ظنوه باطلاً.

ولأن آباءهم سمعوا به من قبل، حسبوه أسطورة.

لكن تأخر الموعد لا يعني كذبه.

فالله لا يقيس الحق بعجلة الإنسان.

والآخرة لا تبطل لأن جيلاً بعد جيل كذب بها؛ فالشمس لا تنطفئ لأن
العميان لم يروها.

ثم يأتي الأمر: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾

القرآن لا يدعو إلى نظري ساكن، بل إلى سير.

امشوا في الأرض، اقرأوا الآثار، فتشوا في الخرائب، اسألوا المدن التي
سقطت، والبيوت التي خلت، والعروش التي زالت.

ليس التاريخ حكايةً للتسلية، بل معرض للعواقب.

ومن لم يقرأ عاقبة المجرمين في الأمم الماضية، قد يكرر طريقهم وهو
يظن أنه أذكى منهم.

ثم يلتفت الخطاب إلى النبي ﷺ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا
يَمْكُرُونَ﴾

ما أرق هذه المواساة.

الحق حين يُرفض يؤلم قلب صاحبه، والداعية الصادق لا يفرح بهلاك
الناس، بل يحزن على إعراضهم.

لكن الله يقول لنبيه: لا تجعل حزنهم يكسرك، ولا تجعل مكرهم يضيق
صدرك.

لأن المكر مهما اتسع فهو داخل علم الله، ولأن القلوب ليست بيد الرسول، بل بيد الله.

مهمتك البلاغ، أما حساب المكر وأهله فعلى رب العالمين.

ثم يقولون مستعجلين: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾

وهذه جرأة الجاهل حين يظن حلم الله عجزاً.

يستعجل الوعد، لا لأنه مستعد له، بل لأنه يكذب به.

ولو عرف ما يستعجل، لارتجف قلبه.

ثم يأتي الجواب: ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفٌ لَّكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾

يا له من جواب مهيب.

كأن العذاب الذي يستعجلونه ليس بعيداً كما يظنون، بل قد يكون قد ردف لهم، اقترب من ظهورهم، ولحق بهم وهم لا يشعرون.

الإنسان قد يمشي ساخراً من الوعيد، والوعيد خلفه.

قد يضحك من العاقبة، والعاقبة تقترب.

قد يقول: متى؟ وهو لا يدري أن بعض ما يستعجل صار قريباً منه جداً.

ثم يقول تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾

مع كل هذا التكذيب والمكر والاستعجال، يبقى فضل الله واسعاً.

يمهلهم، يرزقهم، يفتح لهم أبواب الرجوع، لا يعاجلهم بالعقوبة.

وهذا من أعظم دلائل الفضل: أن الله يعطي من يجده، ويمهل من يتحده،

ويرسل الآيات قبل الأخذ.

لكن المشكلة: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾

يتنفسون فضل الله ولا يشكرون.

يعيشون في ستره ولا يشعرون.

ينجون مرةً بعد مرة، ثم يظنون النجاة صدفة، أو ذكاء، أو حقًا مكتسبًا.

ثم تأتي آية العلم الإلهي: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾

الله لا يعلم كلامهم المعلن فقط، بل يعلم ما تخفيه الصدور قبل أن تصير كلمات.

يعلم الخوف المتستر بثوب السخرية، والكبر المختبئ خلف السؤال، والحسد المتخفي في صورة نقد، والمكر الذي لم يخرج بعد إلى الفعل.

وهذه الآية تسلي المؤمن وتخيف المنافق والمكابر.

تسلي المؤمن لأن ما في صدره من صدقٍ لا يضيع عند الله ولو عجز عن بيانه.

وتخيف المكابر لأن ما يخفيه من نيةٍ فاسدة لا ينجو من علم الله ولو زينّه بالكلام.

ثم يختم المقطع بقوله: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾

ما أعظم هذا الختام.

كل غائبة، كل خفية، كل سر، كل حدث لم يظهر، كل نية لم تنطق، كل مصير لم ينكشف، كل ذرة في السماء والأرض؛ كل ذلك في كتاب مبين.

فلا شيء يضيع.

لا دعوة مظلوم، ولا مكر ظالم، ولا دمة عبد، ولا خطوة في طاعة، ولا كلمة حق قيلت في زمن الخوف، ولا كذبة صنعت هلاكًا، ولا نية خباها صاحبها عن الناس.

كل الغائبات عند الله حاضرة.

وكل ما غاب عن عينك لم يغيب عن كتابه.

ولهذا يطمئن المؤمن: إن لم يظهر الحق الآن، فهو مكتوب.

وإن لم ينكشف المكر الآن، فهو مكتوب.

وإن لم تُفهم العقوبة الآن، فهي في كتاب مبين.

خلاصة الفصل

هذا المقطع يعلمنا أن الغيب لله وحده، وأن إنكار الآخرة ليس قوة عقل، بل عمى بصيرة، وأن استعجال المكذبين للعذاب لا يغيّر موعد الله، بل يكشف جهلهم بحلمه وفضله.

ويعلمنا أن الله يعلم الصدور قبل الأقوال، والغائبات قبل ظهورها، وأن المؤمن لا يعيش مذعورًا من خفاء الأشياء؛ لأن ما خفي عن الناس حاضرٌ في علم الله وكتابه.

ومفتاح هذا الفصل:

من آمن أن كل غائبة في السماء والأرض في كتاب مبين، لم يجزع من تأخر الحق، ولم يغتر بظهور الباطل؛ لأن الأشياء لا تُقاس بما ظهر منها فقط، بل بما كتبه الله لها من عاقبة.

ننتقل إلى مقطع آخر من سورة النمل، حيث يعود القرآن إلى الحديث عن نفسه بعد أن عرض مشاهد التوحيد، والبعث، والغيب، ومصائر الأمم.

هنا لا يأتي القرآن بوصفه كتاب مواظ فقط، بل بوصفه الحَكَم الأعلى بين المختلفين، والرحمة التي لا تنفتح إلا لمن آمن، والنور الذي لا ينتفع به من اختار العمى.

الفصل الحادي عشر

القرآن والاختلاف: حين لا يبصر النور إلا قلب يريد الهداية

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۖ وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ۝ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ۝ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَن ضَلَالَتِهِمْ ۚ إِنَّ تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ النمل:

٨١-٧٦

يبدأ المقطع بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

وهنا يظهر القرآن لا بوصفه كتاباً يروي الماضي فحسب، بل بوصفه كتاباً يفصل في الملتبس، ويكشف مواضع التحريف، ويردّ المختلفين إلى ميزان الحق.

القصص القرآني ليس استعادةً للتاريخ من أجل الذاكرة، بل إعادة ترتيب للوعي.

إنه لا يقول لك: حدث كذا وانتهى، بل يقول لك: افهم سنن الله فيمن سبق، وافهم مواضع الانحراف، وافهم كيف يختلط الحق بالهوى حين تضعف القلوب عن التسليم.

وقوله: ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

يفتح بابًا عظيمًا في معنى القرآن.

فالناس قد تختلف، وتتجادل، وتتوارث الخصومات، وتبني هوياتها على نزاعات قديمة، ثم يأتي القرآن لا ليزيد الضجيج، بل ليعيد المسألة إلى أصلها: ماذا قال الله؟ وما الحق الذي غيبتة الأهواء؟

كأن الآية تقول: إن الاختلاف إذا انفصل عن الوحي صار متاهة، وإذا عاد إلى القرآن وجد ميزانه.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾

القرآن هدى، لأنه يدل على الطريق.

ورحمة، لأنه لا يدل عليه بقسوة جافة، بل يفتح للإنسان باب النجاة.

لكن الآية قيّدت الانتفاع به: **لِلْمُؤْمِنِينَ**.

فالقرآن في ذاته نور، لكن القلب المغلق لا ينتفع بالنور.

والغيث رحمة، لكن الأرض الصخرية لا تثبت ولو أصابها المطر.

وهنا يظهر معنى تكرر في سورة النمل من أولها:

الآيات ليست مشكلة، المشكلة في المتلقي.

فقد تكون الآية مبصرة، كما جاءت آيات موسى، ثم يجدها قوم فرعون ظلمًا وعلوًا.

وقد يكون القرآن هدى ورحمة، ثم لا يجد في القلب المكابر منفذًا.

ثم قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ﴾

هذه الآية تسكب الطمأنينة في قلب المؤمن.

فكل اختلاف لم يُحسم في الدنيا، وكل حق حُورب، وكل باطل لبس ثوب الحق، وكل خصومة طال ضجيجها؛ لها يوم يقضي الله فيه بحكمه.

ليس القضاء الأخير للناس، ولا للجماهير، ولا للسلطان، ولا للروايات الغالبة، بل لله.

والله لا يحكم بالهوى، ولا يلتبس عليه الأمر، ولا يحتاج إلى شهودٍ يخبرونه بما غاب؛ لأنه يعلم الظاهر والباطن.

ثم قال: (وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ)

عزيز؛ فلا يُغلب حكمه.

عليم؛ فلا يخفى عليه شيء.

وهذان الاسمان هنا شديدا المناسبية.

فلو كان عليماً بلا عزة، لعلم الحق ولم ينفذه.

ولو كان عزيزاً بلا علم، لعظم سلطانه دون كمال حكمة.

أما الله فهو العزيز العليم؛ يحكم بعلمٍ كامل، وينفذ حكمه بعزةٍ لا تُرد.

ثم يأتي التوجيه العظيم للنبي ﷺ: (فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)

بعد ذكر الاختلاف، والقضاء، والعزة، والعلم، يأتي الأمر بالتوكل.

كأن الآية تقول: ما دام الحكم لله، والعلم لله، والعزة لله، فلا تجعل قلبك معلقاً

بنتائج الناس، ولا بقبولهم، ولا بمكرهم، ولا بضجيجهم.

التوكل هنا ليس انسحابًا من البلاغ، بل ثبات في البلاغ مع اعتماد القلب على الله.

أن تعمل وأنت تعلم أن الهداية ليست في يدك.
وأن تقول الحق وأنت تعلم أن قضاء الله هو النهاية.
وأن لا تهتز لأن المختلفين كثروا، فربك يقضي بينهم بحكمه.

ثم قال: **(إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ)**

يا لها من تثبيت.

ليس الحق هنا خافئًا ولا غامضًا، بل مبين.
واضح في ذاته، قوي في حجته، مستقيم في طريقه.

والدعاة إلى الحق يحتاجون دائمًا إلى هذا المعنى:
أن كثرة المعارضين لا تجعل الحق باطلًا، وأن ضجيج المكذبين لا يطمس
وضوح الطريق، وأن المرء إذا كان على الحق المبين فلا ينبغي أن يقيس
صدقه بعدد المصنفين له.

ثم تأتي الآيات التي تكشف حدود البلاغ البشري: **(إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى)**

الموت هنا ليس موت الأجساد فقط، بل موت القلوب.
هناك قلبٌ يمشي صاحبه بين الناس، يأكل، ويتكلم، ويجادل، ولكنه ميتٌ من
الداخل؛ لا تتحرك فيه آية، ولا توقظه موعظة، ولا يهتز لنداء الحق.

والرسول ﷺ، وهو أصدق الناس بلاغًا، لا يستطيع أن يُسمع من اختار
موت القلب.

فكيف ييأس الداعية إذا أعرض عنه من دون ذلك؟

ليست كل آذانٍ تسمع، وليست كل قلوبٍ حاضرة، وليست كل حياةٍ ظاهرة
حياةً حقيقية.

ثم قال: ﴿وَلَا تَسْمِعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾

الصمم هنا أعمق من فقد السمع.

إنه صمم الإعراض.

فالذي لا يسمع وهو مقبل قد يُرجى أن يقترب، أما الذي لا يسمع وقد ولى
مدبراً، فقد جمع بين آفة السمع وآفة الاتجاه.

وهذا تصوير مدهش لحال المعرضين:

لا يريدون أن يسمعوا، ولا يريدون أن يبقوا في موضع السماع.

يبتعدون عن الصوت الذي قد يوقظهم، لأنهم يخافون أن يفتح الحق في
داخلهم شقاً من نور.

ثم قال: ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾

العمى هنا عمى البصيرة.

والهداية ليست مجرد نقل معلومة إلى عقل، بل فتح قلبٍ للحق.

قد تشرح للإنسان ألف مرة، لكنه لا يرى؛ لا لأن الطريق مظلم، بل لأن
داخله أطفأ المصباح.

وهذا يعلم المؤمن أدباً عظيماً:

لا تحمّل نفسك ما لم يكلفك الله به.

أنت مأمور بالبيان، لا بخلق البصيرة في القلوب.

مأمور بالنصح، لا بإجبار الأرواح على الانقياد.
 مأمور أن تطرق الباب، أما فتحه من الداخل فبين العبد وربّه.
 ثم تأتي الخاتمة التي تفتح الأمل: ﴿إِنْ تَسْمِعْ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾

إذن هناك من يسمع.
 ليس كل الناس موتى، وليس كل الناس صمًا، وليس كل الناس عميًا.
 هناك قلوب إذا بلغتْها الآية انكسرت، وإذا سمعت الحق أذعنت، وإذا رأت
 النور تبعته. ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾
 هؤلاء هم أهل السماع الحقيقي.

ثم قال: ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾

أي أن الإيمان بالآيات لا يبقى فكرةً في العقل، بل يتحول إلى إسلام، إلى
 انقياد، إلى خضوع، إلى تسليم لله.
 فالقرآن لا يريد منك أن تعجب بالحق فقط، بل أن تسلم له.
 ولا أن تقول: ما أجمل الآيات، ثم تبقى كما أنت؛ بل أن تنحني لها روحك،
 وأن يعيد الوحي ترتيبك من الداخل.

خلاصة الفصل

هذا المقطع يعلمنا أن القرآن هو الحَكَم في الاختلاف، وأنه هدى ورحمة
 للمؤمنين، وأن الله يقضي بين الناس بحكمه لأنه العزيز العليم.

ويعلمنا كذلك أن وظيفة الرسول والداعية هي البلاغ والبيان، لا إجبار القلوب على الهداية؛ فهناك قلوب ميتة، وآذان صمّاء، وبصائر عمياء، لا ينقصها وضوح الحق، بل ينقصها صدق الإقبال عليه.

ومفتاح هذا الفصل:

ليس كل من وصلته الآية سمعها، ولا كل من سمعها اهتدى؛ إنما يسمع القرآن حقًا من كان في قلبه استعدادٌ للإسلام لله حين يتبين له الحق.

ننتقل إلى مقطعٍ رهيب من سورة النمل؛

بعد أن تكلمت السورة عن القرآن، وعن الهداية، وعن القلوب التي لا تسمع، تنتقل الآن إلى مشاهد الساعة: الدابة، والحشر، ووقوع القول، والنفخ في الصور، والجبال التي كنا نظنها جامدة فإذا بها تمضي مرّ السحاب.

الفصل الثاني عشر

حين ينتهي زمن الجدل وتبدأ شهادة الآيات

قال تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ
النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ۝ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ
بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا
عِلْمًا أَمَآذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ
۝ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي
الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ۚ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ۝ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً
وَهِيَ تَمْرٌ مَّرَّ السَّحَابِ ۚ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتَقَنَ كُلُّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ
۝ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ۝ وَمَنْ
جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ النمل:

٨٢-٩٠

يبدأ المقطع بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾

وهذه عبارة تهز القلب.

هناك زمنٌ للكلام، وزمنٌ للمهلة، وزمنٌ للدعوة، وزمنٌ للإنذار، ثم يأتي

زمنٌ آخر: زمن وقوع القول.

حين يقع القول لا تبقى المسألة رأيًا يُناقش، ولا جدلاً يُدار، ولا مهلة تُمدد.

يقع القول كما يقع الحكم بعد طول مرافعة.

وكان السورة تقول: لقد سمعتم الآيات، ورأيتم دلائل الكون، وعرفتكم مصائر الأمم، وجاءكم القرآن هدى ورحمة، فمن لم يوقن بعد هذا كله فسيأتي عليه وقت لا ينفع فيه إنكار.

ثم قال تعالى: (أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ)

يا لجلال هذا المشهد.

الإنسان الذي طالما تكلم على الآيات بغير يقين، يأتيه يوم يكلمه فيه مخلوق من الأرض.

كان الأرض التي عاش عليها، ومشى فوقها، ودفن فيها آثار غروره، تخرج له شاهداً من جنسها.

والدابة هنا آية خارقة، لكنها تأتي حين يكون زمن الاختيار قد أوشك على الانغلاق، وحين ينكشف للناس أن ما كانوا يطلبونه من الآيات ليس عذراً حقيقياً، بل كان كثير منه مراوغة للهرب من اليقين.

ثم مضمون كلامها: (أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ)

هذه هي العلة العميقة: لا يوقنون.

ليست المشكلة أن الآيات قليلة، بل أن اليقين غائب.

كم رأى الإنسان من آيات في نفسه، وفي رزقه، وفي نجاته، وفي ضعفه، وفي موت من حوله، وفي تبدل الأيام، لكنه ظل يعاملها كحوادث عابرة لا كرسائل من الله.

والآية حين لا تُثمر يقيناً تتحول إلى حجة على صاحبها.
فكل ما مرّ بك من دلائل الله كان ينبغي أن يبيّن فيك يقيناً؛ فإن لم يفعل، جاء
يومٌ تشهد عليك الآيات أنك رأيتها ولم تسلم لها.

ثم قال تعالى: (وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ
يُوزَعُونَ)

هنا ينتقل المشهد من الأرض إلى ساحة الحشر.
من كل أمة فوج؛ كأن التاريخ كله يخرج وفوداً وفوداً، لا بأسمائه الدنيوية،
ولا بألقابه السياسية، ولا بمناصبه الاجتماعية، بل بوصفٍ واحد: ممن
يكذب بآياتنا.

يا له من تعريف مخيف.
أن يخرج الإنسان من الدنيا بكل ما كان يظنه هويةً له، ثم يُحشر تحت
عنوان موقفه من آيات الله.
لم يعد المهم: من كنت في قومك؟
بل: ماذا صنعت حين جاءتك الآيات؟

وقوله: (فَهُمْ يُوزَعُونَ)

أي يُجمع أولهم على آخرهم، ويُساقون بنظام لا فوضى فيه.
كما كانت جنود سليمان تُوزع في موكب الملك، فهؤلاء يُوزعون في موكب
الحساب.
لكن الفرق هائل: ذاك موكب نظامٍ في الدنيا، وهذا موكب خضوعٍ أمام
الآخرة.

ثم قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا﴾

هذا سؤال قاضٍ عليم، لا سؤال مستفهم محتاج.
الله يعلم، لكنه يواجههم بحقيقة ما فعلوا. ﴿أَكْذَبْتُم بِآيَاتِي﴾
أي جرؤتم على التكذيب.

﴿وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا﴾

وهنا تنكشف جريمة التسرع على الحق.
لقد كذبوا قبل أن يعلموا، وردّوا قبل أن يحيطوا، وحكموا على الآيات من
ضيق نفوسهم لا من سعة البرهان.

كم من إنسان يعادي الحق لا لأنه عرفه حتى نهايته، بل لأنه لم يحتمله من
بدايته.

يرفض الآية لا بعد إحاطة، بل قبل الإنصاف.
وهذه من أخطر أمراض العقول: أن يكون الجهل جريئاً، وأن تكون النفس
جاهلةً ثم متكبرة.

ثم قال: ﴿أَمَّا ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

أي إن لم يكن عندكم علمٌ يبرر التكذيب، فأني عملٍ كنتم تمضون فيه؟
ماذا صنعتُم بأعماركم؟
في أي طريق صرفتم طاقاتكم؟
ما الذي شغلكم عن اليقين؟
أكانت شهوة؟
أكان علواً؟

أكان ميراناً أعمى؟

أكان خوفاً من الناس؟

أكان مكرًا بالحق؟

أم كانت غفلةً طويلةً لبست ثوب الحياة؟

ثم تأتي الآية التي تقطع الكلام: (وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ)

في أول المقطع قال: (وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ)، وهنا يقول: (وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا).

كأن السورة تحيطهم من البداية والنهاية بوقوع القول.

لم يقع القول عليهم عبثاً، بل: (بِمَا ظَلَمُوا)

فالظلم هو الذي أوصلهم إلى الصمت.

ظلموا أنفسهم بالتكذيب، وظلموا الآيات بالاستهزاء، وظلموا الحق بالإعراض، وظلموا عقولهم حين لم يطلبوا الإحاطة قبل الحكم.

ثم: (فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ)

يا له من صمتٍ بعد طول كلام.

كم تكلموا في الدنيا، وجادلوا، وسخروا، وشككوا، ورفعوا أصواتهم على أهل الحق.

ثم جاء موقفٌ انقطعت فيه الحجج.

هناك صمتٌ يكون أبلغ من كل اعتراف؛ لأن الجريمة صارت أوضح من الدفاع عنها.

ثم يعود القرآن من مشهد القيامة إلى آية يومية قريبة: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا
الَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾

بعد ذلك المشهد الرهيب، يعيدهم إلى الليل والنهار.

وكان القرآن يقول: لم تكن الآيات بعيدة عنكم.

الليل نفسه كان آية.

والنهار نفسه كان آية.

سكونكم في الظلام، وحركتكم في الضوء، هذا النظام اليومي الذي اعتدتموه

حتى نسيتموه، كان شاهداً على الله. ﴿الَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ﴾

الليل ليس مجرد غياب شمس، بل رحمة سكون.

ينزع عن الإنسان صخب النهار، ويعيد إليه شيئاً من هدوئه، ويذكره أنه لا

يستطيع أن يبقى في الحركة دائماً.

﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾

وكان النهار نفسه يبصر أو يجعل الأشياء مبصرة.

يعيد للعالم ملامحه، ويفتح للناس طريق السعي.

فمن جعل هذا التعاقب؟

ومن رتب السكون والحركة؟

ومن جعل الظلمة رحمة، والضوء معاشاً؟

ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

لأن المؤمن لا يحتاج إلى خوارق كل يوم حتى يؤمن.

يكفيه أن يرى الليل والنهار بعين حية.

الغافل يعتاد النعمة حتى لا يراها، والمؤمن يراها كل يوم كأنها رسالة جديدة.

ثم ينتقل السياق إلى النفخ في الصور: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾

هذه نفخة تنهي غرور العالم.

كل الأصوات التي ملأت الدنيا تنطفئ أمام صوت واحد.

أصوات الملوك، والتجار، والخصوم، والمكذبين، والمستكبرين، كلها تسقط حين ينفخ في الصور.

ثم قال: ﴿فَفَزَعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾

الفرع هنا كوني.

ليس فرع فرد، ولا أمة، ولا مدينة، بل فرع السماوات والأرض.

كل من كان يتماسك بقوته، أو بجاهه، أو بعلمه، أو بسلاحه، يرى أن الأمر أكبر من كل ما عرف.

ثم يأتي الاستثناء: ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾

حتى في الفرع العام هناك مشيئة الله.

لا شيء خارج سلطانه.

ومن شاء الله له الأمن أمن، ولو فرع العالم كله.

فالنجاة في ذلك اليوم ليست بكثرة الوسائل، بل بمشيئة الله ورحمته وما قدمه العبد من إيمان وعمل.

ثم قال: ﴿وَكُلُّ أَوْتَاهُ دَاخِرِينَ﴾

كلهم يأتون.

لا أحد يتخلف.

لا ملك، ولا فقير، ولا طاغية، ولا خادم، ولا منكر، ولا مؤمن.

لكنهم يأتون **داخرين**؛ خاضعين صاغرين.

الدنيا التي كانت تمتلئ بادعاءات الاستقلال تنتهي بمشهد الخضوع العام.

ثم تأتي آية من أعجب آيات السورة: **(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ)**

الجبال رمز الثبات في عين الإنسان.

ننظر إليها فنظنها ساكنة راسخة لا تتحرك.

لكن في ذلك اليوم، أو في مشهد قدرة الله، ترى أن ما كنت تحسبه ثابتاً ليس ثابتاً كما ظننت.

وهذه الآية وحدها تهدم غرور الحس.

ليس كل ما تراه جامداً هو في حقيقته كذلك.

وليس كل ما اعتدت ثباته يبقى إذا جاء أمر الله.

الجبال التي كانت أوتاداً في تصورك تمر مرّ السحاب.

ثم قال: **(صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)**

ما أعظم هذا التعقيب.

الحركة الهائلة ليست فوضى، بل صنع.

والتحول الكوني ليس عبثاً، بل إتقان.

الله أتقن كل شيء: في خلقه، وفي تدبيره، وفي إنذاره، وفي حسابه، وفي جزائه.

حتى ما يفرعك من مشاهد القيامة داخل في الإتيان الإلهي.
فليس الكون ينهار خارج قدرة الله، بل يتحرك بأمر الله إلى الموعد الذي أتقنه الله.

ثم قال: **(إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ)**

بعد ذكر الجبال والكون والصور والفرع، يعود إلى فعلك أنت.
كأن الآية تقول: لا تضع نفسك وسط هول المشهد.
الله الذي أتقن حركة الجبال خبيرٌ بحركة قلبك.
الذي يعلم مسير السحاب يعلم خطوتك.
الذي يحيط بالسموات والأرض لا يغيب عنه ما تفعل.

ثم تأتي الخاتمة الجزائية: **(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا)**

ما أكرم الله.

لا يعطي على الحسنة مثلها فقط، بل خيرًا منها.
العبد يأتي بعملٍ محدود، فيقابله الله بفضلٍ أوسع من العمل.
يأتي بطاعةٍ ناقصةٍ من بشرٍ ضعيف، فيعطيه الله من كرمه ما يتجاوز حساب المقابلة.

ثم قال: **(وَهُمْ مِّنْ فَرْعٍ يَوْمِئِذٍ آمِنُونَ)**

وسط الفزع الكوني، هناك أمان.

وهذا من أبهى معاني الإيمان: أن لا يكون الأمن غياباً للفزع حولك، بل حفظاً لك داخله.

الناس تفرع، والكون يضطرب، والجبال تمر، والصور ينفخ، لكن أهل الحسنة في أمانٍ من الله.

ثم قال: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾

الصورة قاسية؛ لأن الجريمة كانت قاسية.

الوجه الذي كان يعلو على الحق، ويعرض عن الآيات، ويتكبر عن السجود، يُكب في النار.

وكأن الجزاء يناسب المعنى: من رفع وجهه استعلاءً على الله، كُِبَّ وجهه يوم الحساب.

ثم يأتي السؤال الأخير: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

هنا تتجلى عدالة الحساب.

ليست المسألة ظلمًا، ولا انتقامًا عشوائيًا، بل ثمرة العمل.

ما زرعتموه عاد إليكم.

ما كذبتُم به حضر أمامكم.

ما استهزأتم به صار حقًا لا مهرب منه.

خلاصة الفصل

هذا المقطع يعلمنا أن زمن الجدل سينتهي، وأن الآيات التي لم تثمر يقينًا في الدنيا ستصير حجةً يوم القيامة، وأن من كذب بغير علم سيُسأل سؤالًا لا يجد له جوابًا.

ويعلمنا أن الكون كله داخل قدرة الله: الليل والنهار، الصور والفرع، الجبال والسحاب، العمل والجزاء.

وأن الأمن الحقيقي ليس أن يخلو العالم من الفرع، بل أن تكون ممن جاء بالحسنة فآمنه الله يوم الفرع العظيم.

ومفتاح هذا الفصل:

من لم توقظه آيات الله في سكون الليل وضوء النهار، فقد يأتي عليه يوم توقظه النفخة والجبال المارة مرّ السحاب؛ ولكن شتان بين يقظة تنفع، ويقظة لا يبقى بعدها إلا الحساب.

ننتقل إلى خاتمة سورة النمل؛ حيث لا تُختم السورة بمشهدٍ تاريخي ولا بحكاية أمة، بل بإعلان العبودية، وتثبيت جهة الحياة، وترك الإنسان أمام آيات الله التي ستتكشف له حتى لا يبقى له عذر.

الفصل الثالث عشر

خاتمة سورة النمل: حين تنتهي العجائب إلى العبودية

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ۚ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝ وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ ۚ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۚ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ۝ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ النمل: ٩١-٩٣

بعد كل هذا الامتداد العظيم في السورة؛

بعد موسى والنار،

وبعد سليمان والنملة،

وبعد الهمدود وبلقيس،

وبعد عرش يُنقل، وملكة تُسلم،

وبعد صالح وثمود، ولوط وقومه،

وبعد سؤال الكون: ﴿أَلِلَّهُ مَعَ اللَّهِ﴾،

وبعد مشاهد الغيب والبعث والدابة والنفخ في الصور؛

تعود السورة إلى الجذر الأول: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ﴾

كأن القرآن يقول لك: كل العجائب التي رأيتها ليست غايتها الدهشة، بل العبودية.

ليست الغاية أن تنبهر بالهمدود، ولا أن تتوقف عند النملة، ولا أن تسأل

طويلاً عن العرش، ولا أن تذهب بعيداً خلف تفاصيل الدابة؛ الغاية أن تعرف ربك، وأن تعبد، وأن تسلم له.

إن السورة التي امتلأت بالملك والعجائب والقوى الخفية تختتم بعبدٍ مأمور أن يعبد.

وهذا من أعظم أسرارها:

كل سلطان لا ينتهي إلى العبودية فتنة.

وكل علم لا يقود إلى الشكر حجاب.

وكل آية لا تثمر تسليماً حجة على صاحبها.

ثم يقول: ﴿رَبِّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا﴾

إنها مكة، البلدة الحرام.

يُذكر ربها في الخاتمة بعد أن ذكرت ممالك الأرض وعروشها؛ كأن السورة تردّ القلب من سبأ وعرشها، ومن ملك سليمان وجنوده، ومن قرى الهالكين، إلى البلد الحرام، إلى مركز التوحيد، إلى البيت الذي جعله الله مثابةً وأمناً.

﴿الَّذِي حَرَّمَهَا﴾

فالحرمة ليست من صنع الناس، ولا من قرار الملوك، بل من جعل الله.

هو الذي حرّمها، وهو الذي أضفى عليها هيبتها.

والأمكنة لا تكتسب قداستها من الحجارة وحدها، بل من أمر الله فيها.

ثم تأتي الجملة الجامعة: ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾

يا لها من كلمة تضع كل ما سبق في موضعه.

له كل شيء:

النملة التي تكلمت،

والهدهد الذي أخبر،

والطير الذي سُخِّر،

والجن الذين عملوا،

والعرش الذي انتقل،

والملكة التي أسلمت،

والجبال التي تمرّ السحاب،

والليل والنهار،

والبر والبحر،

والسماء والأرض،

والغيب والشهادة.

كل شيء له.

فمن السفه أن يُعبد غيره، ومن العمى أن يُسجد لسواه، ومن الخسارة أن

يعيش الإنسان في ملك الله ثم ينسى مالك الملك.

ثم قال: ﴿وَأْمُرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾

ليس المطلوب مجرد معرفة ذهنية، بل إسلام.

أن يسلم القلب، ويسلم الوجه، وتسلم الإرادة، وتسلم الوجهة.

فالإسلام هنا ليس شعارًا يُحمل، بل حالة انقياد لله بعد أن ظهرت الآيات.

وكان خاتمة السورة تقول:

بعد كل ما رأيت، لم يبقَ لك أن تفاوض كثيرًا؛ إنما بقي أن تسلم.
رأيت عاقبة العلو، ورأيت جمال الشكر، ورأيت نجاة المتقين، ورأيت
مصير المكذابين، ورأيت أن الملك لله؛ فكن من المسلمين.

ثم قال: (وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ)

وهذه وظيفة الرسول ﷺ: أن يعبد، وأن يتلو.
العبودية في نفسه، والتلاوة للناس.
صلة بالله، وبلاغ للخلق.

والتلاوة ليست مجرد قراءة صوتية، بل عرضٌ للنور على القلوب.
إنها أن يُترك القرآن يعمل في الناس: يوقظ، وينذر، ويبشر، ويفصل،
ويكشف، ويهدي من أراد الله له الهداية.

ثم جاء الميزان: (فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ)

الهداية نفعها عائد عليك.
أنت لا تزيد الله بإيمانك شيئًا، ولا تمنّ على القرآن إذا اهتديت به.
حين تهتدي، فأنت تنقذ نفسك من العمى، وتخرج روحك من التيه، وتضع
قدمك على طريق النجاة.

وهذا معنى يحرر الداعية أيضًا:
لا تحمل هداية الناس كأنها ملكك.
بلّغ، واتل، وأنذر، أما من اهتدى فثمره هدايته له، ومن ضل فعاقبة ضلاله
عليه.

ثم قال: ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾

ليس على الرسول أن يخلق الهداية في القلوب.
هو منذر.

والإنذار رحمة قبل أن يكون تهديداً؛ لأن الذي يندرك من الخطر قبل وقوعه
قد أحسن إليك، وإن أزعجك صوته.

لكن من أصر على الضلال بعد البلاغ، فقد اختار طريقه.
لا لأنه لم يسمع، بل لأنه لم يستجب.
لا لأن النور غاب، بل لأن عينه الداخلية أبت أن تنفتح.

ثم تأتي الخاتمة المهيبة: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾

بدأ المقطع السابق بـ ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وتختتم السورة هنا بالحمد.
وكان الحمد هو الإطار الذي تُقرأ به الحياة كلها.
تحمد الله على البيان، وعلى الإمهال، وعلى الآيات، وعلى النجاة، وعلى أن
الحق لم يُترك غامضاً، وعلى أن الله رب كل شيء.

الحمد لله بعد القصص.

الحمد لله بعد الإنذار.

الحمد لله بعد كشف العواقب.

الحمد لله لأن المال إليه، والحكم له، والملك له، والرحمة منه.

ثم قال: ﴿سِيرِكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾

هذه آية ختام تفتح المستقبل.

ليست الآيات كلها قد انتهت عند ما سمعتم، بل سترون.

سيريكم الله آياته في الآفاق، وفي أنفسكم، وفي التاريخ، وفي العواقب، وفي لحظات الانكشاف، وفي يوم القيامة.

(فَتَعْرِفُونَهَا)

ستعرفون أنها حق.

قد تنكرون اليوم، وقد تجادلون اليوم، وقد تستبعدون اليوم، لكن ستأتي

لحظة معرفة لا يبقى معها التباس.

غير أن المعرفة المتأخرة لا تنفع دائماً.

فهناك معرفةٌ تهدي لأنها جاءت في زمن الاختيار، ومعرفةٌ تقطع العذر

لأنها جاءت بعد فوات الأوان.

ثم تأتي آخر جملة: **(وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)**

يا لها من خاتمة.

بعد كل الآيات، يعود الأمر إلى العمل.

الله ليس غافلاً.

لا عن سجدة بلقيس حين اهتدت،

ولا عن مكر التسعة رهط،

ولا عن طهر آل لوط،

ولا عن كبر فرعون،

ولا عن شكر سليمان،

ولا عن تكذيب المكذبين،

ولا عن حيرتك وأنت تقرأ،
ولا عن نية قلبك حين يمر بك النداء.

(عَمَّا تَعْمَلُونَ)

ليست السورة للمعرفة المجردة فقط، بل لتسأل نفسك: ماذا سأعمل بعد أن
عرفت؟

خلاصة الخاتمة

سورة النمل تنتهي كما ينبغي لكل تدبر عظيم أن ينتهي: بالعبودية، والقرآن،
والحمد، واليقين بأن الله ليس غافلاً عن العمل.

لقد بدأت السورة بقول الله: (تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ)

وختمت بأن الله سيرينا آياته فنعرفها.

فكانها سورة الآيات من أولها إلى آخرها:

آيات في الوحي،

وآيات في النمل والطير،

وآيات في الملك والهداية،

وآيات في الكون،

وآيات في القيامة،

وآيات في مصائر الناس.

ومفتاح الخاتمة:

كل آيات سورة النمل تقود إلى معنى واحد: أن ترى ملك الله في كل شيء،
ثم لا تجد لنفسك مقامًا أصدق من أن تكون عبدًا مسلمًا، يتلو القرآن، ويحمد
الله، وينتظر وعده وهو يعلم أن ربه ليس بغافل عما يعمل الناس.

الخلاصة الجامعة لسورة النمل

كُلُّ شَيْءٍ آيَةٌ لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ

سورة النمل ليست سورة العجائب فحسب، وإن كانت مملوءة بالعجائب؛ نملة تتكلم، وهدهد يحمل نبأ مملكة، وعرش ينتقل قبل ارتداد الطرف، ومملكة تخرج من سطوة الشمس إلى نور رب العالمين، ودابة تكلم الناس، وجبال تُرى جامدة وهي تمر مرّ السحاب.

لكن العجيب في سورة النمل ليس الغاية، بل الطريق.
فالقرآن لا يدهشك ليتركك في الدهشة، بل يدهشك ليوقظك.
ولا يعرض لك الخارق لتتعلق بالخارق، بل لتتجاوز الخارق إلى من خلق
وسخر ودبر وأحاط بكل شيء علماً.

إنها سورة تقول للإنسان من أولها إلى آخرها:
انظر جيداً؛ فالعالم ليس صامتاً كما تظن.

النملة لها خطاب.

والهدهد له نبأ.

والرياح لها بشارة.

والليل له سكون.

والنهار له إبصار.

والجبال التي تحسبها جامدة لها حركة في علم الله.

والآيات التي تمر بك كل يوم ليست عابرة، بل رسائل مؤجلة الفهم حتى يستيقظ القلب.

بدأت السورة بالقرآن: ﴿طس ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾

وكأنها تضع المفتاح من البداية:

كل ما سيأتي بعد ذلك ليس حكايات مفرقة، بل آيات في كتاب مبين. ليست قصة موسى منفصلة عن قصة سليمان، ولا قصة بلقيس منفصلة عن مصير ثمود، ولا أسئلة الكون منفصلة عن مشاهد القيامة. كلها خيوط في نسيج واحد: أن الله واحد، عليم، حكيم، عزيز، لطيف، خبير، لا يغيب عنه شيء، ولا يعجزه شيء، ولا يستحق العبادة سواه.

في مشهد موسى، نرى أن الاصطفاء قد يبدأ من حاجة صغيرة. خرج يطلب نارًا، فعاد يحمل رسالة.

كان يبحث عن قبسٍ لأهله، فإذا به يدخل في موعدٍ مع الله. وهكذا تعلمنا السورة أن الله قد يفتح أعظم أبواب القدر من أضيق أبواب الحاجة.

وفي مشهد سليمان، نرى القوة حين تهذبها العبودية. ملكٌ عظيم، وجنود من الجن والإنس والطير، ومع ذلك يسمع نملة، فيبتسم، ثم يقول: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾

وهنا تبلغ السورة درسًا عاليًا:

ليست العظمة أن تمتلك الجيوش، بل أن تسمع الضعيف.

وليس الكرامة أن تفهم منطق الطير، بل أن يقودك الفهم إلى الشكر.
وليس النعمة أن تكون قادرًا، بل أن تبقى عبدًا حين تقدر.

ثم يأتي الهدد، ذلك الطائر الصغير الذي لا يحتقره القرآن، ولا تجعله
السورة هامشًا في موكب الملك.
يغيب، فيُسأل عنه.

ويعود، فيحمل نبأً يقينًا.

ويقول لنبي ملك: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾

يا لها من آية في كسر غرور المعرفة.

فقد يأتيك العلم من موضع لا تتوقعه، وقد يحمل الأصغر ما غاب عن
الأكبر، وقد يفتح الله باب هداية أمة على جناح طائر.

وفي قصة بلقيس، لا يعرض القرآن ملكةً سطحية ولا امرأةً غافلة، بل
يعرض عقلًا سياسيًا رزينًا، وقلبًا لم يغلق كل أبوابه.

استشارت، وقدرت عواقب الحرب، واختبرت الهدية، ثم واجهت آية
العرش، ثم رأت الصرح، فانكسر وهمها، وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي
وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

وهذه من أجمل لحظات السورة:

لم تُهزم بلقيس حين أسلمت، بل تحررت.

لم تنتقل من الخضوع للشمس إلى الخضوع لسليمان، بل قالت: مع سليمان
لله.

فالداعية الحق لا يريد الناس لنفسه، بل يريد لهم الله.

والملك النبوي لا يصنع عبيدًا للعرش، بل يدلهم على رب العرش العظيم.

ثم تنتقل السورة إلى ثمود، فنرى وجهًا آخر من الانحراف:
 قوم جاءهم صالح يدعوهم إلى الله، فإذا بهم يجعلون الإصلاح خصومة،
 ويتشاءمون بالمصلح، ثم يتآمر تسعة رهط على قتله وأهله.

وهنا تكشف السورة قانونًا مخيفًا في فساد المدن:
 قد لا تحتاج المدينة إلى آلاف المفسدين كي تهلك؛ يكفيها رهط منظم يفسد
 ولا يصلح، وبيئة تصمت، وجمهور يتفرج، حتى يصبح المكر مشروعًا،
 والكذب رواية، والاغتيال حلًا.

لكن الله يقول: ﴿وَمَكْرُوهُمْ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَكْرُمُونَ﴾

فلا مكر خارج علم الله.
 ولا مؤامرة تنجو من إحاطته.
 ولا ظلام يستطيع أن يخفي الجريمة عن رب يرى السر وأخفى.

ثم تأتي قصة لوط، فإذا بالفساد يبلغ درجة أخرى:
 لا يكتفي بأن يوجد، بل يطرد الطهر.
 ولا يكتفي بأن يخطئ، بل يجعل التطهر تهمة: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ ۚ
 إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾

وهذه آية موجهة في انقلاب الموازين.
 حين تفسد الفطرة لا يبقى الطهر محبوبًا، بل يصبح ثقیلاً على مدينة لا تريد
 أن ترى مراتها.
 فالظاهر يفضح الفاسد ولو صمت، والمستقيم يزج المنحرف ولو لم يرفع
 صوته.

ثم ترفع السورة القلب من القصص إلى الكون، وتبدأ تلك الأسئلة المزلزلة:
(إِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ)

بعد السماء والأرض، والماء والحدائق، والأنهار والجبال، والبحرين
والحاجز، والمضطر إذا دعا، وظلمات البر والبحر، والرياح والرزق
والخلق والإعادة؛ يأتي السؤال كأنه حكم نهائي على كل شرك: (إِلَٰهٌ مَّعَ
اللَّهِ)

والجواب لا يحتاج إلى كثير كلام.

فالكون كله يقول: لا.

والفطرة تقول: لا.

والمضطر حين ينكسر يقول: لا.

والتاريخ حين تسقط عروش المكذبين يقول: لا.

لا إله مع الله.

ولا رب غيره.

ولا ملجأ منه إلا إليه.

ثم تعالج السورة الغيب والبعث، فترد الإنسان إلى حدوده: (قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ

فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ)

إنها آية تربي العقل على التواضع.

فالإنسان ليس عظيمًا لأنه يدعي علم كل شيء، بل لأنه يعرف موضع

جهله، ويقف عند باب الغيب بأدب.

وما أكثر من ضلّوا لأنهم لم يحتملوا أن يقولوا: لا أعلم.

ثم يأتي الحديث عن القرآن، فيقرر أنه هدى ورحمة، لكنه لا ينفع إلا قلباً يريد الهداية.

فالقرآن واحد، لكن القلوب ليست واحدة.

منها قلب يسمع فيسلم، ومنها قلب يسمع كأنه ميت، أو أصم، أو أعمى. ولذلك قال الله لنبيه: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾

وهذا ليس تبييناً من الدعوة، بل تحرير للداعية من عبء ليس له. أنت تتلو، تنذر، تبين، تصبر؛ أما خلق الهداية في القلوب فليس إليك.

ثم تبلغ السورة مشاهد الساعة:

دابة تكلم الناس، وحشر للأمم، وسؤال عن التكذيب، ونفخ في الصور، وفزع عام، وجبال تمر مرّ السحاب.

وكأن السورة التي بدأت بآيات القرآن، وانطلقت في آيات الكون والتاريخ، تختم بآيات القيامة؛ لتقول للإنسان:

إن لم تقرأ الآيات اختياراً في الدنيا، فستراها اضطراراً يوم تنكشف الحجب.

ثم تأتي الخاتمة العظيمة: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾

بعد كل العجائب، يعود الأمر إلى العبودية.

بعد النملة والهدهد والعرش والصرح والدابة والجبال، لا تبقى الغاية أن تقول: ما أعجب هذا، بل أن تقول: آمنت بالله.

وهذا هو سر السورة كله:

العجائب ليست للفرجة، بل للهداية.

والقصص ليست للتسلية، بل للتبصير.

والملك ليس للزينة، بل للشكر.

والعلم ليس للتفاخر، بل للتسليم.

والآيات ليست لتدهش العقل وحده، بل لتوقظ القلب حتى يعبد.

ثم تختتم السورة: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

يا لها من خاتمة.

ستتضح الآيات، إن لم اليوم فغداً.

ستعرفونها، إن لم في زمن المهلة ففي زمن الحساب.

وما ربك بغافل.

لا عن شكر سليمان، ولا عن إسلام بلقيس، ولا عن مكر ثمود، ولا عن طهر آل لوط، ولا عن تكذيب المكذبين، ولا عن قلب يقرأ الآن ويريد أن يهتدي.

مفتاح سورة النمل

سورة النمل تقول في خلاصتها الكبرى:

كل شيء في هذا الكون يمكن أن يكون آية؛ النملة إذا أنذرت، والهدد إذا أخبر، والعرش إذا انتقل، والليل إذا أسكن، والنهار إذا أبصر، والمضطر إذا دعا، والجبال إذا مرت، والقرآن إذا تلى. ولكن الآية لا تهدي إلا قلباً سَلَّمَ لله، ولم يجعل العجب حجاباً عن صاحب العجب.

فهرس الكتاب

الرقم	العنوان	الصفحة
1	الغلاف	1
2	صفحة العنوان: سورة النمل — كُلُّ شَيْءٍ آيَةٌ لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ	2
3	المقدمة	3
4	الفصل الأول: سورة النمل: القرآن حين يفتح عين القلب	6
5	الفصل الثاني: موسى عند النار: حين يبدأ الاصطفاء من لحظة حاجة	11
6	الفصل الثالث: داود وسليمان: حين يكون العلم باباً للشكر لا باباً للغرور	17
7	الفصل الرابع: الهدهد وبلقيس: حين يحمل الطائر خبر التوحيد إلى عرش الملك	25
8	الفصل الخامس: من الكتاب إلى العرش: حين تتحرك الهداية بسلطان الكلمة	33
9	الفصل السادس: حين تسقط الهدية أمام الرسالة	40
10	الفصل السابع: صالح وثمود: حين يتحول الإصلاح إلى تهمة	51
11	الفصل الثامن: لوط وقومه: حين يصبح الطهر تهمة في مدينة الفساد	60
12	الفصل التاسع: أله مع الله؟ حين يحاكم القرآن أوهام الشرك أمام براهين الكون	66
13	الفصل العاشر: الغيب والبعث: حين يعمى الإنسان عن الآخرة فيضيع معنى الحاضر	76
14	الفصل الحادي عشر: القرآن والاختلاف: حين لا يُبصر النور إلا قلبٌ يريد الهداية	84
15	الفصل الثاني عشر: حين ينتهي زمن الجدل وتبدأ شهادة الآيات	91
16	الفصل الثالث عشر: خاتمة سورة النمل: حين تنتهي العجائب إلى العبودية	102